عبد الله بن رواحة رضي الله عنه

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضل له ، ومن يُضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠، ٧١].

أما بعد:

فإن أصدقَ الحديثِ كتابُ الله، وخيرَ الهدي هديُ محمدٍ ﷺ ، وشرَّ الأمورِ محدثاتُها، وكلَّ محدثةٍ بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الأحبة في الله: حديثنا اليوم بإذن الله عن الصحابي الجليل عبد الله بن رواحة رضي الله عنه إنه عبد الله بن رواحة بن ثعلبة بن امرئ القيس بن ثعلبة الأمير السعيد الشهيد أبو عمرو الأنصاري الخزرجي البدري النقيب الشاعر.

شهد بدرًا والعقبة يكنى أبا محمد ، وأبا رواحة ، وليس له عقب وهو خال النعمان بن بشير وكان من كتاب الأنصار استخلفه النبي ﷺ على المدينة في غزوة بدر، وبعثه النبي ﷺ سرية في ثلاثين راكبًا إلى أسير بن رزام اليهودي بخيبر فقتله[1].

---

(١) «السير» للإمام الذهبي (١/ ٢٣١-٢٣٢) بتصرف.

وتعالوا بنا لنعيش قصة الأمير السعيد الشهيد من أولها لنستشف عبير السعادة والشهادة عسى الله أن يجمعنا في زمرة السعداء والشهداء في جنته ومستقر رحمته إخوانًا على سرر متقابلين.

لقد نشأ ابن رواحة في أسرة كريمة فنشأ نشأة مباركة فكان يكتب ويقرأ، وكانت الكتابة وقتها نادرة عند العرب.

وكان في تلك البيئة الخصيبة ذات العيون والزروع والخضرة يحب أن يتعايش مع الشعر إلى أن أصبح شاعرًا لا يشق له غبار ولم يكن شاعرًا فحسب!! بل كان شاعرًا وفارسًا مغوارًا يعتمد عليه قومه «الخزرج» في حروبها ضد الأوس إذ كان العداء مشتعلًا بينهم بصورة دائمة ولكن الله - عز وجل - أراد الخير للكون كله ببعثة الحبيب ﷺ فأشرقت شمس الهداية على أرض الجزيرة لينعم بدفئها من أراد النور وسئم الظلام بكل ما فيه.

ولما بعث الحبيب مصعب بن عمير سفيرًا للدعوة إلى الله في المدينة المنورة، وكان مصعب لبيبًا ذكيًا رحيمًا في دعوته فلم يمض عليه فترة يسيرة حتى جعله الله سببًا في إسلام تلك الباقة العطرة من سادة وأشراف يثرب المدينة. وفي موسم من مواسم الحج خرج ابن رواحة لأداء الحج مع قومه وعشيرته فكان هذا اللقاء التاريخي عند العقبة وكانت بيعة العقبة الثانية فتقدم ابن رواحة ومد يده لتصافح وتبايع الحبيب ﷺ تلك البيعة المباركة.

وكان ابن رواحة من النُّقباء الأثني عشر في تلك البيعة ثم عاد إلى المدينة، وقد امتلأ قلبه غبطة وسرورًا، وهنا بدأ ابن رواحة رحلته في الدعوة إلى الله على بصيرة.

وازداد شوقه وحنينه لرؤية الحبيب ﷺ وملازمته فشاء الله عز وجل - أن يهاجر الحبيب ﷺ إلى المدينة لتدخل التاريخ من أوسع أبوابه ولتصبح منارة للكون كله عبر العصور والأزمان. وخرج ابن رواحة مع قومه لاستقبال الحبيب ﷺ وما إن استقر النبي ﷺ في المدينة حتى كان ابن رواحة يلازمه ملازمة العين لأختها ليقبس

من هديه وعلمه وأخلاقه العذبة المباركة. ولم يكن ابن رواحة يدافع عن الإسلام بسيفه ولسانه فحسب، بل كان يدعو إلى الله ورسوله بكل ما أوتي من قوة في البيان والإقناع وهو سبب إسلام أبي الدرداء ﷺ كان أبو الدرداء تربطه بعبد الله بن رواحة في الجاهلية صداقة ومحبة فقد كانا متآخيين في الجاهلية، فلما جاء الإسلام اعتنقه عبد الله بن رواحة وأعرض عن أبي الدرداء. وتمر الأيام والليالي وما زال أبو الدرداء على الشرك.

وفى يوم من الأيام خرج أبو الدرداء كعادته إلى متجره وأخذ يبيع ويشتري ثم عاد إلى منزله وهو في غاية الاشتياق لرؤية إلهه الصنم الذي كان يعبده، وإذا به يجد مفاجأة لم تخطر بباله أبدًا. فلقد دخل بيته وهو غائب عنه - عبد الله بن رواحة ومحمد بن مسلمة فكسّرا صنمه، فرجع يجمع الصنم ويقول: ويحك هلا امتنعت ألا دفعت عن نفسك فقالت أم الدرداء: لو كان ينفع أو يدفع عن أحد دفع عن نفسه ونفعها، فقال أبو الدرداء: أعدي لي ماء في المغتسل فاغتسل ولبس حلته ثم ذهب إلى النبي ﷺ فنظر إليه ابن رواحة مقبلًا، فقال: يا رسول الله، هذا أبو الدرداء، وما أراه إلا جاء في طلبنا؟ فقال: «إنما جاء ليسلم إن ربي وعدني بأبي الدرداء أن يسلم»[1] وهكذا احتل عبد الله بن رواحة مساحة عظيمة في نفس أبي الدرداء، إذ هو سبب في إسلامه وهدايته وكان أبو الدرداء يعترف بهذا له، وأثر عنه قوله: أعوذ بالله أن يأتي عليّ يوم لا أذكر فيه عبد الله بن رواحة[2]. وفى كل مجلس يجلسه أبو الدرداء كان يحدث عن عبد الله بن رواحة، ويذكر فضائله ومناقبه، فلم تكن صورته تبرح مخيلة أبي الدرداء.

أما عن عبادة عبد الله بن رواحة وخوفه من الله قال أبو الدرداء: إن كنا لنكون مع رسول الله ﷺ في السفر في اليوم الحار ما في القوم أحد صائم إلا رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه ابن عساكر (١٣/ ٣٦٩/ ٢).

(٢) «تهذيب الأسماء واللغات» (١/ ٢٦٥).

وعبد الله بن رواحة[١]. وعن أبي ليلى قال: تزوج رجل امرأة ابن رواحة - بعد وفاته - فقال لها: تدرين لم تزوجتك؟ لتخبريني عن صنيع عبد الله في بيته. فذكرت له شيئًا لا أحفظه، غير أنها قالت: كان إذا أراد أن يخرج من بيته صلى ركعتين وإذا دخل، صلى ركعتين. لا يدع ذلك أبدًا[٢].

قال عروة: لما نزلت والشعراء يتبعهم الغاوون قال ابن رواحة: أنا منهم فأنزل الله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء:٢٢٧][٣].

قال ابن سيرين: كان شعراء رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة، وحسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وكان ابن رواحة قد جعل ماله ولسانه وسنانه لنصرة دين الله - جل وعلا - وكان رحيمًا باليتامى، فها هو يكفل «زيد بن أرقم» الذي كان يتيمًا وقتها فيتربى في حجره ويعطف عليه «ابن رواحة» ويغدق عليه الخير الكثير.

عباد الله: ولعبد الله بن رواحة موقف مبارك أمام رأس المنافقين «ابن سلول» وإليكم ذلك:

ذهب رسول الله ﷺ - بعد الهجرة - يعود سعدًا بن عبادة في مرض أصابه قبل وقعة بدر، فركب حمارًا وأردف وراءه أسامة بن زيد، وسارا حتى مرَّا بمجلس فيه عبد الله بن أبيّ، وإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود وفي المسلمين عبد الله بن رواحة. فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خَمَّرَ عبد الله أنفه بردائه، ثم قال: لا تغبروا علينا، فسلم رسول الله - عليه الصلاة والسلام - ثم وقف ونزل فدعاهم إلى الله، وقرأ عليهم القرآن .. فقال له عبد الله: أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول، إن كان حقًا فلا تؤذنا به في مجالسنا. وارجع إلى رحلك فمن جاء فاقصص عليه.

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٤٥) ومسلم (١٢٢).

(٢) نسبة الحافظ في «الإصابة» (٦/ ٧٨-٧٩) إلى ابن المبارك في «الزهد» وصحح سنده.

(٣) أخرجه ابن سعد (٣/ ٢/ ٨١).

فقال ابن رواحة: بلى يا رسول الله، فاغشنا به في مجالسنا فإنا نحب ذلك فاستَبَّ المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثاورون، فلم يزل الرسول - عليه الصلاة والسلام - يخفضهم حتى سكتوا ثم ركب وسار حتى دخل على سعد بن عبادة، فقال النبي ﷺ: «ألم تسمع إلى ما قال أبو حباب»؟ يعني ابن أبيّ: قال سعد: وما قال: قال رسول الله ﷺ: قال كذا وكذا. فقال سعد: أعف عنه يا رسول الله، فوالذي أنزل عليك الكتاب لقد جاءك الله بالحق الذي أنزل عليك، ولقد اجتمع أهل هذه البحيرة - يعني المدينة - على أن يتوجوه، ويعصبوه بالعصابة فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك شرق بذلك فذلك الذي فعل به ما رأيت[1].

قلت ما سمعتم وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الحمد لله ولي الصالحين ولا عدوان إلا على الظالمين وأصلي وأسلم على نبي الأولين والآخرين وعلى أله وصحابته الطيبين، الذين جعلهم الله أئمة يقتدى بهم إلى يوم الدين .

أما بعد:

عباد الله: من مناقب عبد الله بن رواحة ﷺ العدل الذي به قامت السموات والأرض، عن سليمان بن يسار أن النبي ﷺ كان يبعث ابن رواحة إلى خيبر فيخرص بينه وبين يهود، فجمعوا حليًّا من نسائهم فقالوا: هذا لك وخفف عنا.

قال: يا معشر يهود ! والله إنكم لمن أبغض خلق الله اليَّ، وما ذاك بحاملي على أن أحنيف عليكم والرشوة سحت[2]. فقالوا: بهذا قامت السماء والأرض[3]. وعن

---

(١) أخرجه البخاري (٧/ ١٨٥-١٨٦/ بشرح فتح الباري)، ومسلم (٥/ ١٨٢-١٨٣).
(٢) أحيف عليكم: أجور عليكم أو أظلمكم.
(٣) «السير» للإمام الذهبي (١/ ٢٣٧).

الهيثم بن أبي سنان أنه سمع أبا هريرة في قصصه يذكر النبي ﷺ يقول: إن أخًا لكم لا يقول الرفث يعني بذلك ابن رواحة قال:

فينا رسـول الله يتلو كتابه ∴ إذا انشق معروف من الفجر ساطع

أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا ∴ به موقنات أن ما قال واقع

يبيت يجافي جنبه عن فراشه ∴ إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

ولما حمي الوطيس كان ابن رواحة من المسارعين لنصرة دين الله وللذود عن حياضه فها هو تراه في غزوة بدر يقاتل قتال الليوث المهتاجة فكان يهد صفوف المشركين هدًّا وفي غزوة أحد أبلى بلاءً حسنًا ولما قتل حمزة عم النبي ﷺ قام ابن رواحة فرثاه في قصيدة قال فيها:

بكت عيني وحق لها بكاها ∴ وما يُغني البكاء ولا العويل

على أسدِ الإله غَدَاة قالوا ∴ أحمزة ذاكم الرجل القتيل

أصيب المسلمون به جميعًا ∴ هناك وقد أُصيب به الرسول

أبا يَعْلى لكِ الأركان هُدَّت ∴ وأنت الماجد البرُّ الوصول

وكان كذلك من الأبطال في غزوة الخندق، وكان لا يقاتل بالسنان فحسب، بل كان يحارب المشركين بشعره وكلامه الذي هو أشد عليهم من وقع النبل.

وعن أنس قال: دخل النبي ﷺ مكة في عمرة القضاء وابن رواحة بين يديه يقول:

خلُّوا بني الكفار عن سبيله ∴ اليوم نضربكم على تنزيله

ضربًا يُزيل الهام عن مقيله ∴ ويُذهل الخليل عن خليله

فقال عمر: يا ابن رواحة! في حرم الله، وبين يدي رسول الله تقول الشعر؟ فقال النبي ﷺ: «خل يا عمر، فهو أسرع فيهم من نضح النَّبْل» وفى لفظ «فوالذي نفسي بيده لكلامه عليهم أشد من وقع النبل»[1]. وظل هذا البطل المغوار شوكة في ظهر المشركين إلى أن جاء اليوم الذي كان ينتظره بطلنا على شوق ولهفة ألا وهو اليوم الذي رزقه الله فيه الشهادة في سبيله.

عن عروة بن الزبير قال: بعث النبي بعثًا إلى مؤتة في جمادى الأولى من سنة ثمانٍ واستعمل عليهم زيد بن حارثة فقال لهم: إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس، وإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس، فتجهز الناس ثم تهيئوا للخروج وهم ثلاثة آلاف، فلما حضر خروجهم ودع الناس أمراء رسول الله ﷺ وسلموا عليهم فقال لهم المسلمون: صحبكم الله ورفع عنكم وردكم إلينا صالحين، فقال عبد الله بن رواحة:

لكنني أسأل الرحمن مغفرة ∴ وضربة ذات فرع تقذف الزبدا

أو طعنة بيدي حران مجهزة ∴ بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا

حتى يقولوا إذا مروا على جدثي ∴ أرشده الله من غاز وقد رشدا

ثم خرج القوم وخرج رسول الله ﷺ يشيعهم ثم مضوا حتى نزلوا معان من أرض الشام فبلغهم أن هرقل في باب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم، وقد اجتمعت إليه المستعربة من لخم وجذام وبلقين وبهرام وبلي في مائة ألف، عليهم رجل بلي أخذ رايتهم يقال له: ملك بني زانة، فلما بلغ ذلك المسلمين قاموا بمعان ليلتين ينظرون في أمرهم وقالوا نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا فإما أن يمدنا وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له فشجع عبد الله بن رواحة الناس وقال: يا قوم والله إن الذي تكرهون للذي خرجتم له تطلبون الشهادة وما نقاتل الناس بعدد ولا

(١) قال الأرنؤوط: إسناد قوي وأخرجه الترمذي (٢٨٥١) وأبو يعلي بسند حسن.

قوة ولا كثرة إنما نقاتلهم بهذا الدين الذي أكرمنا الله به فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين أما ظهور وإما شهادة.

ثم التقى الناس واقتتلوا فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ حتى شاط في رماح القوم، ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى إذا لحمه القتال اقتحم عن فرس له شقراء، فعقرها فقاتل القوم حتى قُتل، وكان جعفر أول رجل من المسلمين عقر في الإسلام[1]. فلما قتل جعفر أخذ عبد الله بن رواحة الراية ثم تقدم بها وهو على فرسه، فجعل يستنزل نفسه وتردد بعض التردد ثم قال:

أقسمت يا نفس لتنزلنَّه ∴ طَائِعَةً أو لتكرهنَّه

مالي أراك تكرهين الجنة ∴ إن أجلب الناس وشدوا الرَّنَّة

لطالما قد كنت مُطمئنة ∴ هل أنت إلا نطفة في شنة

وقال عبد الله بن رواحة:

يانفس إلَّا تُقْتَلي تموتي ∴ هذا حمام الموت قد صليت

وما تمنيتِ فقد لقيتِ ∴ أن تفعلي فعلهما هُدِيَت

ثم نزل فلما نزل أتاه ابن عم له بعظم من لحم فقال: اشدد بهذا صلبك فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما قد لقيت، فأخذه من يده فانتهش منه نهشة ثم سمع الحطمة في ناحية الناس فقال: وأنت في الدنيا . ثم ألقاه من يده ثم أخذ سيفه فقاتل حتى قتل، فأخذ الراية ثابت بن أرقم أخو بن عجلان وقال: يا أيها الناس اصطلحوا على رجل منكم، قالوا: أنت . قال: ما أنا بفاعل. فاصطلح الناس على خالد بن الوليد، فلما أخذ الراية دافع القوم ثم انحاز حتى انصرف»[2].

(١) قال الهيثمي: رواه الطبراني، ورجاله ثقات إلى عروة «مجمع الزوائد» (٦/ ١٠٧-١٠٩).
(٢) قال الهيثمي: رواه الطبراني ورجاله ثقات (٦/ ١٥٩-١٦٠) «مجمع الزوائد».

وعن أنس ﷺ أن النبي ﷺ نعى زيدًا وجعفرًا وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم: فقال: «**أخذ الراية زيد فأصيب ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب وعيناه تذرفان - حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم**»[1]. وعاد خالد بن الوليد ﷺ بالجيش بعد أن أوقع الخسائر الفادحة في جيش الروم، ولا شك أن النجاة بهذا الجيش الذي يتجاوز الثلاثة آلاف من جيش الكفار الذي بلغ مائتي ألف نجاح عظيم، ولذلك سمى النبي ﷺ ذلك فتحًا، ووصف خالدًا بأنه سيف من سيوف الله[2] وهكذا رحل ابن رواحة بعد أن سالت دماؤه الذكية الطاهرة في أرض الشرف والجهاد .. تلك الدماء التي لطالما امتزجت بحب الله وحب رسوله ﷺ وتحركت شوقًا لنصرة دين الله.

رحل ابن رواحة ليجمعه الله في الجنة مع حبيبه ﷺ لتكتمل سعادته في الدنيا والآخرة. فرضي الله عن ابن رواحة وعن سائر الصحابة أجمعين وعن التابعين وتابع التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

اللهم انصر الإسلام والمسلمين واهزم الكفرة أعداءك أعداء الدين، اللهم شتت شملهم وفرق جمعهم واجعل الدائرة عليهم إلى يوم الدين، اللهم ول أمور المسلمين خيارهم ولا تولها شرارهم يا أرحم الراحمين اللهم اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا اللهم إنا نسألك حسن الخاتمة يا سميع الدعاء. وقوموا إلى صلاتكم .

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٥٨٥).

(٢) «وقفات تربوية» لأحمد فريد (٣٢٤ - ٣٢٧) بتصرف.

عبادة بن الصامت رضي الله عنه

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضل له ، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء:١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠، ٧١].

أما بعد:

فإن أصدقَ الحديثِ كتابُ الله، وخيرَ الهدي هديُ محمدٍ ﷺ، وشرَّ الأمورِ محدثاتُها، وكلَّ محدثةٍ بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الأحبة في الله: حديثنا اليوم بإذن الله عن الصحابي الجليل عبادة بن الصامت رضي الله عنه لقد كان هذا الفارس المغوار سيدًا من سادات الخزرج .. فوالده الصامت بن قيس الخزرجي وأمه قرة العين بنت عبادة. وكان عبادة رضي الله عنه يتمنى من أعماق قلبه أن تتخلص أرض الجزيرة من تلك الجاهلية التي كادت أن تحول الحياة إلى جحيم دائم لا يغيب ولا يزول.

وإذا بالنور الإلهي ينبثق من بين الظلام الدامس ليضيء أرجاء الكون كله .. وإذا بالحبيب ﷺ تتنزل عليه رسالة ربه لينقذ الله به البشرية من ظلمات الجاهلية والكفران إلى أنوار التوحيد والإيمان.

ولما وجد النبي ﷺ قلوب أكثر المشركين من حوله لا تقبل الهداية ولا تريدها كالحجر الذي لا يقبل الماء - خرج يدعو الناس في مواسم الحج. وفي موسم الحج (سنة ١١) من النبوة. وجدت الدعوة الإسلامية بذورًا صالحة سرعان ما تحولت إلى شجرات باسقات. اتقى المسلمون في ظلالها الوارفة عن لفحات الظلم والطغيان طيلة الأعوام.

وكان من حكمته ﷺ إزاء ما كان يلقى من أهل مكة من التكذيب والصد عن سبيل الله - أنه كان يخرج إلى القبائل في ظلام الليل حتى لا يحول بينه وبينهم أحدٌ من أهل مكة المشركين[١] خرج كذلك ليلة ومعه أبو بكر وعليّ، فمر على منازل ذهل وشيبان بن ثعلبة وكلمهم في الإسلام، وقد دارت بين أبي بكر وبين رجل من ذهل أسئلة وردود طريفة، وأجاب بنو شيبان بأرجا الأجوبة ، غير أنهم توقفوا في قبول الإسلام[٢].

ثم مر رسول الله ﷺ بعقبة منى فسمع أصوات رجال يتكلمون، فعمدهم حتى لحقهم، وكانوا ستة نفر من شباب يثرب كلهم من الخزرج. وكان من سعادة أهل يثرب، أنهم كانوا يسمعون من حلفائهم من يهود المدينة أن نبيًّا من الأنبياء مبعوث في هذا الزمان سيخرج فنتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم. فلما لحقهم رسول الله ﷺ قال لهم: «من أنتم؟» قالوا: نفر من الخزرج، قال:«من موالي اليهود؟» أي حلفائهم- قالوا: نعم ، قال : «أفلا تجلسون أكلمكم»؟ قالوا: بلى، فجلسوا معه، فشرح لهم حقيقة الإسلام ودعوته ودعاهم إلى الله عز وجل، وتلا عليهم القرآن فقال بعضهم لبعض: تعلمون والله يا قوم إنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا تسبقنّكم إليه فأسرعوا إلى إجابة دعوته وأسلموا.

وكانوا من عقلاء يثرب أنهكتهم الحرب الأهلية التي مضت من قريب، والتي لا

---

(١) «تاريخ الإسلامي» للنجيب آبادي (١/ ١٢٩).

(٢) «مختصر سيرة الرسول» للشيخ عبد الله النجدي (ص١٥٢).

يزال لهيبها مستعرًا فأملوا أن تكون دعوته سببًا لوضع الحرب، فقالوا إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك.

ولما رجع هؤلاء إلى المدينة حملوا إليها رسالة الإسلام حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر رسول الله ﷺ[1].

وكان من جراء ذلك أن جاء في الموسم التالي - موسم الحج (سنة ١٢) من النبوة- اثنا عشر رجلًا فيهم خمسة من الستة الذين كانوا قد اتصلوا برسول الله ﷺ في العام السابق .. وكان من بينهم عبادة بن الصامت، واتصل هؤلاء برسول الله ﷺ عند العقبة بمنى ، فبايعوه[2].

روى البخاري عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال: «**تعالوا بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئًا ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوني في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة، ومن أصاب من ذلك شيئًا فستره الله فأمره إلى الله إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه**» قال: فبايعته - وفى نسخة: فبايعناه - على ذلك[3]. وفى يوم بيعة العقبة الثانية كان «عبادة» من المسارعين إلى بيعة الحبيب ﷺ فوضع يده في يد النبي ﷺ ليبايعه تلك البيعة المباركة التي لا تتكرر عبر الزمان أبدًا.

وبعد أن تمت البيعة أراد النبي ﷺ منهم أن ينتخبوا اثنى عشر زعيمًا يكونون نقباء على قومهم يكفلون المسؤلية عنهم في تنفيذ بنود هذه البيعة فقال للقوم: «أخرجوا

---

(١) «السيرة» لابن هشام (٢/ ٢٩٢).
(٢) ابن هشام (١/ ٤٣٣).
(٣) أخرجه البخاري (١٨)، وسلم (١٧٠٩).

إليّ منكم اثنى عشر نقيبًا ليكونوا على قومكم بما فيهم»[1] فكان «عبادة» من نقباء الخزرج - وعاد بعدها عبادة إلى يثرب «المدينة» وقد امتلأ قلبه بالسعادة والسرور وعاش عبادة ﷺ بل وتعايش مع كل آية في كتاب الله ومع كل سنة من سنن الحبيب ﷺ، ولقد عاش «عبادة» في أفضل عصور الإسلام على الإطلاق فهو قد عاصر أحداث النبوة برمتها، شهد نزول الوحي على النبي عليه الصلاة والسلام وحاز قصب السبق من كل نوع من أنواع الخير، فجمع بين فضيلة الصُّحبة عمومًا، وميزه مشاهير الصحابة خاصة، واصطبغ بصبغة الإسلام النقية، وذاق حلاوته الشذية وكان ﷺ مثلًا أعلى في الإيمان القوي والعقيدة الراسخة، والإخلاص لخالقه وموجده منذ اللحظة الأولى التي آمن فيها، وكان إيمانه منبع البطولات في المعارك التي خاضها، وسر صلابته في الحق، وثباته على السُّنَّة[2].

ولما هاجر الحبيب ﷺ فرح عبادة بقدومه فرحًا عظيمًا يعجز القلم عن وصفها .. فلقد كان «عبادة» يحبه حبًا ملك عليه لبه وفؤاده. ولقد شهد عبادة المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وأبلى فيها بلاءً حسنًا فكان يقاتل فيها قتال من يبحث عن الشهادة ويشتاق إليها اشتياق من يبحث عن قطرة ماء في صحراء موحشة ومنذ أن اختار الله ورسوله، وهو يقوم على أفضل وجه بتبعات هذا الاختيار.

كل ولائه لله، وكل طاعته لله، وكل علاقته بأقربائه وبحلفائه وبأعدائه، إنما يشكلها إيمانه ويشكلها السلوك الذي يفرضه هذا الإيمان. كانت عائلة عبادة مرتبطة بحلف قديم مع يهود بني قينقاع بالمدينة، ومنذ هاجر الرسول وأصحابه إلى المدينة، ويهودها يتظاهرون بمسالمته حتى كانت الأيام التي تعقب غزوة بدر وتسبق غزوة أحد، فشرع يهود المدينة يتغمزون، وافتعلت إحدي قبائلهم - بنو قينقاع - أسبابًا للفتنة وللشغب على المسلمين. ولا يكاد «عبادة» يرى موقفهم هذا،

---

(١) قال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٨٤): رواه أحمد والطبراني نحوه ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع.

(٢) «صور من سير الصحابة» عبد الحميد السيجابني.

حتى ينبذ إليهم عهدهم ويفسخ حلفهم قائلًا: إنما أتولى الله ورسوله والمؤمنين، فيتنزل القرآن محييًا موقفه وولاءه، قائلًا في آياته: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة:٥٦].

عباد الله: وعندما أرسل النبي ﷺ عثمان بن عفان رضي الله عنه سفيرًا إلى قريش في وقعة الحديبية فاحتبسته قريش عندها - ولعلهم أرادوا أن يتشاوروا معه في الوضع الراهن - فلما طال احتباسه عندهم وشاع بين المسلمين خبر مقتل عثمان قام الحبيب ﷺ ودعا أصحابه إلى البيعة فثاروا إليه يبايعونه على أن لا يفروا .. وبايعته جماعة على الموت، وكان من بينهم «عبادة بن الصامت» - رضي الله عنه - فأنزل الله في شأنهم قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح ١٨:١٩].

فشهد الله لهم بالإيمان وأسبغ عليهم نعمة الرضوان وظل «عبادة» ملازمًا للحبيب ﷺ ملازمة العين لأختها يقبس من هديه وعلمه وأخلاقه العذبة الرقيقة، فلما توفى الحبيب ﷺ حزن عبادة حزنًا كاد أن يمزق قلبه، ولكنه ظل ثابتًا على إيمانه وعقيدته مقتفيًا أثر الحبيب ﷺ في كل صغيرة وكبيرة.

ولما تولى أبو بكر الصديق رضي الله عنه الخلافة وجاءت حروب الردة كان عبادة من الفرسان الذين لا يشق لهم غبار، فخاض حروب الردة بكل شجاعة وفدائية لم يسبق لها مثيل.

قلت ما سمعتم وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم .

الحمد لله حمد الشاكرين، وأصلي وأسلم على سيد الأولين والآخرين، المبعوث رحمة للعالمين صلى الله عليه وعلى آله وصحابته التابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

وفى خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب يزيد بن أبي سفيان إليه: قد احتاج أهل الشام إلى من يعلمهم القرآن ويفقههم، فأرسل إليه عمر معاذ بن جبل، وعبادة بن الصامت، وأبا الدرداء، فأقام عبادة بحمص فاستخلفه عليها أبو عبيدة بن الجراح، عندما سار لفتح اللاذقية ثم صرفه لفتح طرطوس ففتحها، وكان أول من ولي قضاء فلسطين من قبل عمر بن الخطاب رضي الله عنه (١).

وكان رضي الله عنه لا يخاف في الله لومة لائم، بل كان يصدع بكلمة الحق دائمًا.

وذات مرة قام رضي الله عنه وأنكر على معاوية رضي الله عنه شيئًا، فقال: لا أساكنك بأرض .. فرحل إلى المدينة. قال له عمر: ما أقدمك فأخبره بفعل معاوية فقال له: أرحل إلى مكانك، فقبح الله أرضًا لست فيها وأمثالك، فلا إمرة له عليك؟ (٢). أما موقفه التاريخي في فتح مصر والإسكندرية فعندما أراد المسلمون أن يفتحوا مصر واتجه إليها عمرو بن العاص رضي الله عنه في جيش كبير. ولكن عندما وصل إلى أرض مصر رأى كثرة عدد وعدة من المصريين والروم فطلب مددًا من عمر بن الخطاب رضي الله عنه واستجاب عمر لرأي عمرو. وأمده بأربعة آلاف رجل، وكتب له كتابًا قال فيه: إني قد أمددتك بأربعة آلاف رجل على كل ألف رجل منهم مقام ألف، وكان عبادة بن الصامت أحد هؤلاء الأربعة.

ثبتت قدم عمرو في أم دنين وعين شمس التي صارت مركزًا لقيادته الحربية ولم يبق أمامه سوى حصن بابليون، فسار إليه وحاصروه سنة (٢٠هـ) وكان ذلك

---

(١) «أُسد الغابة» (٣/ ٥٦).

(٢) «السير» للإمام الذهبي (٢/ ٧) وقال الأرنؤوط: رجاله ثقات.

وقت فيضان النيل، وطال أمد الحصار إلى سبعة أشهر لمناعة أسوار المدينة وقلة معدات الحصار عند العرب.

وبعد شهور رأى المقوقس الجد من المسلمين وصبرهم على القتال وأنهم سوف يقتحمون الحصن بصبرهم وشجاعتهم، فخرج هو ونفر من قومه ولحقوا بجزيرة الروضة وأرسل إلى عمرو يطلب منه الصلح، وقال له في كتاب أرسله إليه: قد جئتم أرضنا وطال مقامكم فيها وأنتم عصبة يسيرة وأخشى أن تغشاكم الروم فتندموا فابعثوا إلينا رجالًا منكم نسمع من كلامهم، فلعله أن يأتي الأمر بيننا على ما نحب وتحبون».

ولما أتت رسل المقوقس إلى عمرو، أبقاهم عنده يومين حتى خاف عليهم المقوقس، ثم قال لهم عمرو: ليس بيننا وبينكم إلا إحدى خصال ثلاث:

١- إما دخلتم في الإسلام فكنتم إخواننا وكان لكم مالنا وعليكم ما علينا.

٢- وإن أبيتم فالجزية عن يد وأنتم صاغرون.

٣- وإما القتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو أحكم الحاكمين.

ولما عاد الرسل إلى المقوقس سُرَّ بلقائهم وسألهم عن حال المسلمين فأجابوا: رأينا قومًا الموت أحب إليهم من الحياة، والتواضع أحب إليهم من الرفعة، ليس لأحد منهم في الدنيا رغبة ولا نهمة، جلوسهم على التراب، وأميرهم كواحد منهم، ما يعرف كبيرهم من وضيعهم، ولا السيد فيهم من العبد، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها أحد، يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون في صلاتهم.

وقد أرهب المقوقس هذا الحديث، فأشار على قومه بطلب الصلح وأرسل إلى المسلمين أن يبعثوا إليه رسلًا للمفاوضة في الصلح، فبعث عمرو عشرة رجال فيهم عبادة بن الصامت ، وأمره أن يكون هو المتكلم[1].

---

(١) «الخلفاء الراشدون» الشيخ حسن أيوب (١٦٤-١٦٥).

وعندما دخل القوم على المقوقس يتقدمهم عبادة أخذ يرتعد منه ويخافه ويقول لهم: نحوا عني هذا الأسود وقدموا غيره يكلمني[١] فتقدم إليه عبادة فقال: قد سمعت مقالتك، وإن فيمن خلفت من أصحابي ألف رجل كلهم مثلي، وأشد سوادًا مني وأفظع منظرًا، لو رأيتهم لكنت أهيب لهم مني، وأنا قد وليت وأدبر شبابي، وإني بحمد الله ما أهاب مائة رجل من عدوي لو استقبلوني جميعًا، وكذلك أصحابي؛ لأن رغبتنا الجهاد في الله واتباع رضوانه وليس غزونا عدوَّ الله لرغبة في الدنيا .. وما يبالي أحدنا أكان له قناطير من ذهب أم كان لا يملك درهمًا لأن غاية أمرنا من الدنيا أكلة يأكلها يسد بها جوعته ليله ونهاره وشملة يلتحفها، وإن كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفاه.

وإن كان لأحدنا قنطارًا من ذهب أنفقه في طاعة الله - تعالى - واقتصر على هذا الذي بيده ..

فلما سمع المقوقس ذلك منه قال لمن حوله: هل سمعتهم كلام هذا الرجل قط؟ لقد هبت منظره ، وإن قوله لأهيب عندي من منظره .. ثم أقبل المقوقس على «عبادة» قائلًا له: أيها الرجل الصالح، قد سمعت مقالتك وما ذكرت عنك وعن أصحابك ولعمري ما بلغتم ما بلغتم إلا بما ذكرت عنك وعن أصحابك ثم قال: وقد توجه إلينا لقتالكم من جمع الروم ما لا يحصى عدده. قوم معروفون بالنجدة والشدة ممن لا يبالي أحدهم من لقي ولا من قاتل، وإنا لنعلم أنكم لم تقووا عليهم ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم»[٢] فقال عبادة: يا هذا لا تغرن نفسك ولا أصحابك، أما ما تخفونا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وإنا لا نقوى عليهم فلعمري ما هذا بالذي تخوفنا به ولا بالذي يكسرنا عما نحن فيه ..

وما منا رجل إلا ويدعو ربه صباحًا ومساءً أن يرزقه الشهادة وألا يرده إلى بلاده ولا إلى أرضه ولا إلى أهله وولده وإنما همنا ما أمامنا. وأما قولك: إنا في ضيق وشدة

(١) «النجوم الزاهرة» (١/ ١٢).
(٢) «النجوم الزاهرة» (١/ ١٣: ١٤).

من معاشنا وحالنا فنحن في أوسع السعة، لو كانت الدنيا كلها لنا ما أردنا منها لأنفسنا أكثر مما نحن فيه، فانظر الذي تريد فبينه لنا، فليس بيننا وبينك خصلة نقبلها منك ولا نجيبك إليها إلا خصلة من ثلاث، فاختر أيتها شئت، ولا تطمع نفسك في الباطل، بذلك أمرني الأمير. وبها أمره أمير المؤمنين. وهو ما عهد به رسول الله ﷺ من قبله إلينا[١] وبذلك كون عبادة رضي الله عنه حربًا نفسية شنها على عظيم مصر، فقضى على كل مقاومة عنده، وملأ نفسيته بالرعب والفزع وإذا ما وصل قائد من قواد الدول والجيوش إلى هذه الحالة من الاضطراب والهول فقد خسر المعركة وسلمت بلاده أما ما جاء بعد ذلك فهي توسلات المقتول إلى قاتله أن يترفق به في ذبحه ويجد شفرته، حتى لا يحس بألم القتل[٢]. وتمت سفارة عبادة بن الصامت، وعاد إلى عمرو بن العاص يزف إليه فتح مصر بعد أن خرب نفسية القائد، وفت في عضد جنوده، وبينما هم على أهبة الاستعداد لخوض معركة فاصلة مع إحدى حصون الروم، والتي لم تستسلم بعد، وصلت رسالة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفيها يقول:

أما بعد: فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر، إنكم تقاتلونهم منذ سنين، وما ذلك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم. وإن الله - تبارك وتعالى- لا ينصر قومًا إلا بصدق نياتهم، وقد كنت وجهت إليك أربعة نفر، وأعلنتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل، على ما كنت أعرف، إلا أن يكونوا قد غيرهم ما غيرهم، فإذا أتاك كتابي هذا فأخطب الناس، وحضهم على قتال عدوهم ورغبهم في الصبر والنية، وقدم أولئك الأربعة في صدور الناس ومر الناس جميعًا أن يكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد وليكن ذلك عند زوال يوم الجمعة، فإنها تنزل الرحمة، ووقت الإجابة، وليدع الناس ربهم، ويسألونه النصر على عدوهم[٣] لقد

(١) «النجوم الزاهرة» (١/ ١٥).

(٢) «رجال أنزل الله فيهم قرآنا» د/ عبد الرحمن عميرة (٢/ ١٥٩).

(٣) «رجال أنزل الله فيهم قرآنا» (٢/ ١٦٠) نقلًا من «صور من سير الصحابة» عبد الحميد السيجباني.

قرأ عمرو كتاب أمير المؤمنين وأخذ يفكر في خطة يفتح بها الإسكندرية، ولم يحتج إلى مجهود كبير؛ لأن الخطة الحية كانت مجسمة أمامه في عملاق المعارك، عبادة بن الصامت .. ووجهه إليها ففتح الله على يديه الإسكندرية.

وبعد حياة طويلة مليئة بالبذل والعطاء والتضحية والجهاد في سبيل الله نام عبادة ﷺ على فراش الموت ليلحق بالحبيب ﷺ وأصحابه ﷺ في جنات النعيم إخوانًا على سرر متقابلين. ودفن ﷺ ببيت المقدس سنة أربع وثلاثين فرضى الله عن عبادة وعن سائر الصحابة أجمعين، اللهم ألحقنا بالصالحين .. واجعلنا هداة مهتدين لا ضالين ولا مضلين، اللهم من ولي أمر المسلمين فيسَّر لهم فيسِّر له أمره وأصلح شأنه ومن ولي أمر المسلمين وشقَّ عليهم فاشقق عليه يا سميع الدعاء اللهم انصر جندك وأوليائك واخذل أعداءك واجعل الدائرة عليهم وأرنا فيهم عجائب قدرتك وقوموا إلى صلاتكم .

obeikandl.com

سعيد بن عامر رضي الله عنه

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مُضل لـه ، ومن يُضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء:١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠، ٧١].

أما بعد:

فإن أصدقَ الحديثِ كتابُ الله، وخيرَ الهدي هديُ محمدٍ ﷺ، وشرَّ الأمورِ محدثاتُها، وكلَّ محدثةٍ بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الأحبة في الله: حديثنا اليوم بإذن الله عن الصحابي الجليل سعيد بن عامر رضي الله عنه.

عباد الله: إن أي تجارة قد تخسر وقد تربح، ولكن من أراد التجارة الرابحة التي لا تخسر أبدًا فعليه أن يتاجر مع الله - عز وجل - قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [الصف١٠: ١٢].

يقول ابن سعدي - رحمه الله - في تفسير هذه الآيات: هذه وصية ودلالة وإرشاد من أرحم الراحمين لعباده المؤمنين لأعظم تجارة وأجل مطلوب وأعلى مرغوب، يحصل بها النجاة من العذاب الأليم، والفوز بالنعيم المقيم، وأتى بأداة العرض الدالة على أن هذا أمر يرغب فيه كل متبصر، ويسمو إليه كل لبيب فكأنه قيل: ما هذه التجارة التي هذا قدرها؟ فقال: تؤمنون بالله ورسوله.

ومن المعلوم أن الإيمان التام، هو التصديق الجازم بما أمر الله بالتصديق به، المستلزم لأعمال الجوارح، ومن أجَلِّ أعمال الجوارح الجهاد في سبيل الله، فلهذا قال: «**وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم**» بأن تبذلوا نفوسكم ومهجكم لمصادمة أعداء الإسلام، والقصد نصر دين الله وإعلاء كلمته، وتنفقون ما تيسر من أموالكم في ذلك المطلوب، فإن ذلك وإن كان كريها للنفوس شاقًا عليها، فإنه «**خير لكم إن كنت تعلمون**» فإن فيه الخير الدنيوي، من النصر على الأعداء والعز المنافي للذل والرزق الواسع، وسعة الصدر وانشراحه وفي الآخرة الفوز بثواب الله والنجاة من عقابه ولهذا ذكر الجزاء في الآخرة، فقال: «**يغفر لكم ذنوبكم**» وهذا شامل للصغائر والكبائر فإن الإيمان بالله والجهاد في سبيله مكفر للذنوب، ولو كانت كبائر «**ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار**» أي: من تحت مساكنها [وقصورها] وغرفها وأشجارها أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات «**ومساكن طيبة في جنات عدن**» أي جمعت كل طيب من علو وارتفاع وحسن بناء وزخرفة حتى إن أهل عليين، يتراءاهم أهل الجنة كما يتراءى الكوكب الدري في الأفق الشرقي أو الغربي، وحتى إن بناء الجنة بعضه من لبن ذهب [وبعض من] لبن فضة، وخيامها من اللؤلؤ والمرجان . وبعض المنازل من الزمرد والجواهر الملونة بأحسن الألوان، حتى إنها من صفاتها يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، وفيها من الطيب والحسن ما لا يأتي عليه وصف الواصفين ولا خطر على قلب أحد من العالمين لا يمكن أن يدركوه حتى يروه ويتمتعوا بحسنه وتقر أعينهم

به، ففي تلك الحالة، لولا أن الله خلق أهل الجنة وأنشأهم نشأة كاملة لا تقبل العدم، لأوشك أن يموتوا من الفرح، فسبحان من لا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يثني عليه عباده، وتبارك الجليل الجميل الذي أنشأ دار النعيم، وجعل فيها من الجلال والجمال ما يبهر عقول الخلق ويأخذ بأفئدتهم.

وتعالى من له الحكمة التامة، التي من جملتها أن الله لو أرى الخلائق الجنة حين خلقها، ونظروا إلى ما فيها من النعيم لما تخلف عنها أحد، ولما هناهم العيش في هذه الدار المنغصة المشوب نعيمها بألمها، وسرورها بترحها وسميت الجنة جنة عدن، لأن أهلها مقيمون فيها لا يخرجون منها أبدًا ولا يبغون عنها حولًا، ذلك الثواب الجزيل، والأجر الجميل، الفوز العظيم الذي لا فوز مثله، فهذا الثواب الأخروي[1]

اعلم أيها الأخ الكريم أن ثباتك على الحق يثمر لك كل خير في الدنيا والآخرة .. وقد يشرح الله صدر إنسان إلى الدخول في الإسلام أو على الالتزام - إن كان من عصاه المسلمين - عندما يراك ثابتًا على الحق.

وها هو سعيد بن عامر رضي الله عنه كان إسلامه ثمرة من ثمرات الثبات للصحابي الجليل خبيب بن عدي رضي الله عنه فلقد كان سعيد مشركًا عندما ذهب مع مشركي قريش وزعمائهم لمشاهدة مصرع خبيب بن عدي بعد أن غدروا به وبأصحابه، وعندما اجتمعت تلك الحشود والجماهير من مشركي قريش وقف سعيد بن عامر يرقب الموقف، وإذا بخبيب بن عدي يقول لهم بصوت هادئ: دعوني حتى أركع ركعتين .. فتركوه فصلاهما ويالها من صلاة عندما تكون صلاة مودع ينتظر بعدها لقاء ربه - جل وعلا - فلما سلّم قال: والله لولا أن تقولوا إن ما بي جزع لزدت.

فقال له أبو سفيان - وكان مشركًا في هذا الوقت: أيسرك أن محمدًا عندنا نضرب عنقه وأنك في أهلك؟ فقال: لا والله ما يسرني أني في أهلي وأن محمدًا في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه ثم قال خبيب:

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص٨٦٠) مركز فجر للطباعة والنشر والتوزيع.

اللهم أحصهم عددًا واقتلهم بددًا ، ولا تبق منهم أحدًا ثم قال:

لقد جمع الأحـزاب حـولي وألّبوا ∴ قبائلهم واستجمعوا كل مُجمعِ
وكـلـهـم مـبـدٍ لـلـعـداوة جاهد ∴ عـليّ لأني في وصـال بمضبعِ
وقـد جمـعـوا أبـنـاءهـم ونساءهم ∴ وقـربـت مـن جـذع طـويـل ممنعِ
إلى الله أشكو غربتي ثـم كربتي ∴ وما أرصد الأحزاب لي عند مصرعي
فـيـارب صـبـرني عـلى مـا يـراد بي ∴ فقد بضعوا الحمى وقد يأس مطمعي
وقد خـيروني الكفر والمـوت دونه ∴ وقـد هملت عيناني من غير مجزعِ
ومـا بي حـذار المـوت إني لميت ∴ ولكن حـذاري جسم، ار ملفعِ
ولـسـت أبـالي حـين أقـتـل مسلماً ∴ على أي جنب كان في الله مصرعي
وذلـك في ذات الإلـه وإن يشأ ∴ يبارك على أوصـال شلو مُمـزعِ[1]

فقاموا وصلبوه ولفظ أنفاسه الأخيرة.

بعد ساعات معدودة كانت قريش قد تناست ما فعلته بخبيب، ولكن سعيد بن عامر لم يستطع أبدًا أن ينسى هذا المشهد المهيب وهذا الثبات العجيب، وظل يتذكر هذا الثبات الذي نبع من قلب قد امتلأ حبًّا لله ولرسول الله ﷺ .

لقد تعلم سعيد أن العقيدة هي القوة الحقيقية التي تجعل الإنسان يثبت أمام الفتن ثبات الجبال ، وتعلم في الوقت ذاته أن خبيبًا ما كان ليضحي بحياته من أجل محمد بن عبد الله إلّا لأنه هو رسول الله المؤيد من السماء، وكانت هذه هي نقطة البدء لانطلاق هذا الكوكب الساطع في سماء الإسلام ..

(١) «الرحيق المختوم» للمبار كفوري (ص ٣١٤).

فأسلم سعيد بن عامر قبل غزوة خيبر، وهاجر إلى النبي ﷺ وشهد معه غزوة خيبر وما بعدها، وظل ملازمًا لرسول الله ﷺ حتى مات الحبيب ﷺ وهو عنه راضٍ .. وجاء أبو بكر ومن بعده عمر، وهما يعرفان للرجل قدره ومكانته.

قلت ما سمعتم وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الحمد لله ولي الصالحين ولا عدوان إلا على الظالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وإمام المتقين وحجة الله على الناس أجمعين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد :

إن فطنة وذكاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه في اختيار الولاة لا يستطيع قلم أن يصفها أبدًا، فقد كان لا يعطي الولاية لمن يريدها، بل كان يعطيها لمن يهرب منها، ولمن امتلأ قلبه خوفًا من الله وحُبًا لمن حوله من البشر، وزهدًا في الدنيا .. وهنا وقع الاختيار على سعيد بن عامر ليتولى شأن مدينة « حمص» التي كانت مركزًا تجاريًا مرموقًا، ودارًا مليئة بالإغراءات التي لا يثبت أمامها إلا الزهاد والعباد . فدعا عمر بن الخطاب سعيدًا وعرض عليه ولاية مدينة حمص فما كان من سعيد إلا أن قال: لا تفتنِّي يا أمير المؤمنين فقال: والله لا أدعك ، قلدتموها في عنقي وتركتموني، فقال عمر: ألا نفرض لك رزقًا؟، قال: قد جعل الله تعالى في عطائي ما يكفيني دونه أو فضلًا على ما أريد.

قال: وكان إذا خرج عطاؤه ابتاع لأهله قوتهم، وتصدق ببقيته، فتقول له امرأته أين فضل عطائك؟، فيقول لها: قد أقرضته. فأتاه ناس فقالوا: إن لأهلك عليك حقًا وإن لأصهارك عليك حقًا. فقال: ما أنا بمستأثر عليهم، ولا بملتمس رضا أحد من الناس لطلب الحور العين، ولو اطلعت خيِّرة من خيِّرات الجنة لأشرقت

لها الأرض كما تشرق الشمس.

عباد الله: أسوق تلك القصة على وجه السرعة إلى كل راع استرعاه الله رعية صغرت أم كبرت لكي يتعلم أن الولاية تكليف لا تشريف، وأنها أمانة وأنها يوم القيامة خزي وندامة.

قال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾[الصافات:٢٤]، وقال ﷺ: «**كلكم راع وكلمك مسئول عن رعيته فالإمام راعٍ وهو مسئول عن رعيته ..**»[١] وقال ﷺ: «**ما من رجل يلي أمر عشرة فما فوق ذلك إلا أتى الله مغلولًا يده إلى عنقه .. فكه برُّهُ أو ثقه إثمه .. أولها ملامة، وأوسطها ندامة، وآخرها خزي يوم القيامة**»[٢] فيا لها من كلمات تخلع القلوب وتمزق الأكباد.

والآن نعيش سويًا مع هذا المشهد المهيب.

ها هو أمير المؤمنين - عمر - يأمر بعض من يثق بهم من أهل مدينة حمص إن يكتبوا له كشفًا بأسماء الفقراء، فَرُفِعَ إليه الكتاب فإذا فيه سعيد بن عامر بن جذيم أميرها، قال: مَنْ سعيد بن عامر: قالوا: أميرنا. قال أميركم؟ قالوا: نعم. فعجب عمر، ثم قال: كيف يكون أميركم فقيرًا أين عطاؤه أين رزقه؟ قالوا: يا أمير المؤمنين لا يمسك شيئًا قال: فبكى عمر، ثم عمد إلى ألف دينار، فصرها ثم بعث بها إليه وقال: أقرئوه مني السلام وقولوا بعث بهذه إليك أمير المؤمنين تستعين بها على حاجتك قال فجاء بها إليه الرسول فنظر فإذا هي دنانير. قال: فجعل يسترجع - يقول: إنا لله وإن إليه راجعون - قال: تقول له امرأته: ما شأنك يا فلان أمات أمير المؤمنين. قال: بل أعظم من ذلك قالت فما شأنك قال: الدنيا أتتني، الفتنة دخلت عليّ قالت: فاصنع فيها ما شئت قال: عندك عون قالت: نعم قال: فأخذ دريعة فصر الدنانير فيها صرارًا ثم جعلها في مخلاة، ثم اعترض جيشًا من جيوش المسلمين فأمضاها

---

(١) متفق عليه عن ابن عمر «صحيح الجامع» (٤٥٦٩).

(٢) رواه أحمد عن أبي إمامة وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٧١٨).

كلها، فقالت له امرأته: رحمك الله لو كنت حبست منها شيئًا نستعين به فقال لها: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لو اطلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى أهل الأرض لملأت ريح مسك» وإني والله ما كنت لاختارك عليهن فسكتت[1].

عباد الله: انطلق عمر بن الخطاب كعادته يتقصى أحوال الولاة خوفًا من أن تدخل الدنيا إلى قلوبهم أو أن يكون هناك مظلمة واحدة في أي بلد من بلاد المسلمين. فلما قدم عمر حمص قال: يا أهل حمص كيف وجدتم عاملكم؟ فشكوه إليه وكان يقال لأهل حمص الكويفة الصغرى، لشكاتهم العمال، قالوا:- نشكوا أربعًا: لا يخرج إلينا حتى يتعالى النهار. قال أعظم بها قال: وماذا؟ قالوا: لا يجيب أحدًا بليل. قال: وعظيمة، قال: وماذا؟ قالوا: له يوم في الشهر لا يخرج فيه إلينا قال: عظيمة: قال: وماذا؟ قولا: تأخذه الغشية - الإغماء - بين الحين والحين. قال: فجمع عمر بينهم وبينه، وقال: اللهم لا تخيب ظني فيه اليوم. ما تشتكون منه؟ قالوا: لا يخرج حتى يتعالى النهار . قال سعيد بن عامر: والله إذ كنت لأكره ذكره إنه ليس لأهلي خادم، فاعجن عجينهم، ثم أجلس حتى يختمر، ثم أخبز خبزي، ثم أتوضأ ثم أخرج إليهم. فقال: عمر ما تشتكون منه؟ قالوا: لا يجيب أحداً بليل. قال: ما يقولون؟ قال: إن كنت لأكره ذكره، إني جعلت النهار لهم وجعلت الليل لله عز وجل. قال وما تشكون منه؟ قالوا: إن له يومًا في الشهر لا يخرج إلينا فيه. قال: ما يقولون؟ قال: ليس لي خادم يغسل ثيابي وليس لي ثياب أبدلها، فأجلس حتى تجف، ثم أدلكها ثم أخرج إليهم من آخر النهار قال: ما تشكون منه؟ قالوا تأخذه الغشية بين الحين والحين.

قال: ما يقولون؟ قال: شهدت مصرع خبيب الأنصاري في مكة وقد بضعت قريش لحمه ثم حملوه على جذع فقالوا: أتحب أن محمدًا مكانك؟ فقال: والله ما أحب أني في أهلي وولدي وأن محمدًا شيك بشوكة ثم نادى: يا محمد فما ذكرت ذلك اليوم وتركي نصرته في تلك الحال وأنا مشرك لا أؤمن بالله العظيم إلا ظننت أن الله

---

(١) صفة الصفوة (١/ ٢٨٠).

عز وجل لا يغفر لي بذلك الذنب أبدًا فتصيبني تلك الغشية فقال عمر: الحمد لله الذي لم يفل فراستي. فبعث إليه بألف دينار وقال استعن بها على حاجتك. فقالت امرأته: الحمد لله الذي أغنانا عن خدمتك فقال لها: فهل لك في خير من ذلك؟ ندفعها إلى من يأتينا بها أحوج ما نكون إليها، قالت: نعم فدعا رجلًا من أهله يثق به فصررها صررًا ثم قال: انطلق بهذه إلى أرملة آل فلان، وإلى مسكين آل فلان، وإلى مبتلى آل فلان، فبقيت منها ذهيبة فقال: أنفقي هذه ثم عاد إلى عمله فقالت: ألا تشتري لنا خادمًا؟ ما فعل ذلك المال؟ قال سيأتيك أحوج ما تكونين - يعني في الآخرة[1] هكذا يكون المسلم الذي لا يتعلق قلبه بحطام الدنيا الفانية، بل يتطلع دومًا وأبدًا إلى النعيم المقيم في جنات الخلود التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وبعد تلك الحياة المليئة بالزهد والورع والإيثار نام سعيد على فراش الموت ليُسلم روحه إلى بارئها - جل وعلا - وليلحق بالحبيب ﷺ . فرضي الله عن سعيد وعن سائر الصحابة أجمعين، وعن التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

اللهم ألحقنا بالصالحين واجعلنا من ورثة جنة النعيم بمنك وكرمك وجودك يا أكرم الأكرمين، اللهم من ولي أمر المسلمين فيسر لهم فيسر أمره وأصلح شأنه ومكنه في الأرض ومن ولي أمر المسلمين وشق عليهم فلا تجعل له سلطانا على المسلمين اللهم انصر إخواننا المجاهدين لإعلاء كلمتك في كل مكان، اللهم وحد كلمتهم واجعلهم على كلمة سواء وأطعم جائعهم واكس عاريهم واسق عطشاهم وعاف مبتلاهم يا أرحم الراحمين اللهم عليك بالصليبيين وأعوانهم اللهم شتت شملهم وفرق جمعهم واجعل الدائرة عليهم واجعلهم وأموالهم وديارهم غنيمة للإسلام والمسلمين، اللهم اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وتوافنا مسلمين وقوموا إلى صلاتكم.

(١) صفة الصفوة (١/ ٢٨٠-٢٨١).

أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضل له ، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠، ٧١].

أما بعد:

فإن أصدقَ الحديثِ كتابُ الله، وخيرَ الهدي هديُ محمدٍ ﷺ، وشرَّ الأمورِ محدثاتُها، وكلَّ محدثةٍ بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الأحبة في الله: حديثنا اليوم بإذن الله عن الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه إنه أبو أيوب الأنصاري الخزرجي النجاري البدري. السيد الكبير. الذي خصه النبي ﷺ بالنزول عليه في بني النجار إلى أن بنيت له حجرة أم المؤمنين سودة، وبني المسجد الشريف[1] .

شهد العقبة وبدرًا وما بعدها، ونزل عليه النبي ﷺ لما قدم المدينة، فأقام عنده حتى بنى بيوته ومسجده، وآخى بينه وبين مصعب بن عمير.

---

(١) السير للذهبي (٢/ ٤٠٢).

وشهد الفتوح وداوم الغزو، واستخلفه عليّ على المدينة لما خرج إلى العراق، ثم لحق به بعد، وشهد معه قتال الخوارج[١] عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة نزل في عُلو المدينة، في حيٍّ يقال لهم: بنو عمرو بن عوف، قال، فأقام فيهم أربع عشرة ليلة ثم أرسل إلى ملأ بني النجار، قال: فجاءوا متقلدي سيوفهم، قال: وكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ على راحلته وأبو بكر رِدْفَهُ وملأُ بني النجار حوله حتى ألقي بفناء أبي أيوب، فكان يصلي حيث أدركته الصلاة ويصلي في مرابض الغنم. قال: ثم إنه أمر ببناء المسجد. فأرسل إلى ملأ بني النجار، فجاءوا، فقال: يا بني النجار ثامنوني بحائطكم هذا فقالوا: لا والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله. قال: فكان فيه ما أقول لكم: كانت فيه قبور المشركين، وكانت فيه خَرِب، وكان فيه نخل فأمر رسول الله ﷺ قبور المشركين فنُبشت وبالخرب فسويت، وبالنخل فقطع، قال: فصفوا النخل قبلة المسجد. قال: وجعلوا عضادتيه حجارة، قال: جعلوا ينقلون ذاك الصخر وهم يرتجزون ورسول الله ﷺ معهم يقولون:

«اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة .. فانصر الأنصار والمهاجرة»[٢]

فلما كان يوم الجمعة ركب بأمر الله له فأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف، فجمع بهم في المسجد الذي في بطن الوادي، ثم ركب، فأخذوا بخطام راحلته .. هَلُمَّ إلى العدد والعدة والسلاح والمنعة[٣]

والأنصار إن لم يكونوا أصحاب ثروات طائلة، إلا أن كل واحد منهم كان يتمنى أن ينزل الرسول ﷺ عليه فكان لا يمر بدار من دور الأنصار إلا أخذوا خطام راحلته: هلُمَّ إلى العدد والعدة والسلاح والمنعة، فكان يقول لهم: «**خلوا سبيلها فإنها مأمورة**» فلم تزل سائرة به حتى وصلت إلى موضع المسجد النبوي اليوم فبركت

---

(١) الإصابة للحافظ ابن حجر (٢/ ٢٠٠).
(٢) أخرجه البخاري (٣٩٣٢ كتاب مناقب الأنصار).
(٣) زاد المعاد (٣/ ٥٩).

ولم ينزل عنها حتى نهضت وسارت قليلًا ثم التفتت ورجعت فبركت في موضعها الأول، فنزل عنها، وذلك في ديار بني النجار أخواله ﷺ، وكان من توفيق الله لها، فإنه أحب أن ينزل على أخواله يكرمهم بذلك، فجعل الناس يكلمون رسول الله ﷺ في النزول عليهم، وبادر أبو أيوب الأنصاري إلى رحله، فأدخله بيته، فجعل رسول الله ﷺ يقول: «المرء مع رحله» وجاء أسعد بن زرارة فأخذ بزمام راحلته، وكانت عنده[1] وفي رواية أنس عند البخاري، قال نبي الله ﷺ: «**أي بيوت أهلنا أقرب؟**» فقال أبو أيوب: أنا يا رسول الله، هذه داري، وهذا بابي، قال: «**فانطلق فهيء لنا مقيلًا**». قال: قوما على بركة الله[2].

عباد الله: لئن كانت دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي هي نواة الدعوة الإسلامية في مكة المكرمة، لقد أصبحت دار فارسنا في هذه الصفحات هي الدار التي انطلقت منها نفحات الإيمان في المدينة المنورة فَنِعْمَتِ الدار ونِعْمَ ساكنها.

فعبير الشذا وشذا العبير، فشمه من زهر رياض سيرة هذا الصحابي الفارس أبي أيوب الأنصاري الذي خصه رسول الله ﷺ بالنزول عليه في بني النجار، فكان مضيف سيدنا وحبيبنا رسول الله ﷺ وصاحبه وفارسه، وناهيك بها من صفات فوَّاحة بأربح العطر، إذ كان من أكبر الشرف له أن يشرِّف رسول الله ﷺ بيته بالنزول عليه .. ولله در الإمام السبكي إذ أحسن، فأجاد، فقال:

نزلت على قوم بأيمن طائر ∴ لأنك ميمون السَّنا والنقيبة

فيا لبني النجار من شرف به ∴ يجرُّون أذيال المعالي الشريفة

عباد الله: وها هو النبي ﷺ في ضيافة أبي أيوب، ولنترك المجال لأبي أيوب رضي الله عنه يحدثنا عن تلك الفرحة الشديدة التي ملأت عليه جوانحه وجوارحه لنزول النبي ﷺ في

---

(١) السيرة لابن هشام (٢/ ٣٤٣)، زاد المعاد (٢/ ٥٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣٩١١).

بيته، عن أبي أيوب قال: لما نزل عليَّ رسول الله ﷺ في بيتي نزل في السُّفْل، وأنا وأم أيوب في العُلو، فقلت له: يا نبيَّ الله، بأبي أنت وأمي إني لأكره وأعظم أن أكون فوقك، وتكون تحتي، فاظهر أنت فكن في العلو، وننزل نحن فنكون في السفل، فقال: «**يا أبا أيوب، إن أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في سفل البيت**»[1] وأقام رسول الله ﷺ في دار أبي أيوب قرابة سبعة أشهر، وهو يلقى الإكرام حتى تم بناء مسجده الشريف في المكان الذي بركت فيه ناقته فانتقل إلى الحجرات التي أقيمت حول المسجد لأزواجه، وغدا أبو أيوب ﷺ أقرب الناس جوارًا لرسول الله ﷺ فغُبِطَ مرة أخرى من الأنصار بهذه الخصوصية الكريمة. وظل أبو أيوب ﷺ من كرماء الأنصار والمخلصين في أعمالهم والمتفانين في محبته ﷺ. حيث كان يدخر لرسول الله ﷺ كل يوم طعامًا، فإذا أبطأ ولم يأت إليه في حينه، أطعمه لأهله[2].

عباد الله: من مناقب أبي أيوب ﷺ إكرامه ومحبته للحبيب ﷺ عن ابن عباس ﷺ قال: خرج أبو بكر ﷺ بالهاجرة إلى المسجد فرآه عمر ﷺ[3] فقال: يا أبا بكر ما أخرجك هذه الساعة؟! قال: ما أخرجني إلَّا ما أجد من شدة الجوع، فقال عمر: وأنا والله ما أخرجني غير ذلك. فبينما هما كذلك إذ خرج عليهما رسول الله ﷺ فقال: «**ما أخرجكما هذه الساعة؟!**» قالا: والله ما أخرجنا إلا ما نجده في بطوننا من شدة الجوع. قال عليه السلام: «**وأنا - والذي نفسي بيده - ما أخرجني غير ذلك .. قوما معي**» فانطلقوا فأتوا باب أبي أيوب الأنصاري ﷺ وكان أبو أيوب يدخر لرسول الله ﷺ كل يوم طعامًا، فإذا أبطأ عنه ولم يأت إليه في حينه أطعمه لأهله.

فلما بلغوا الباب خرجت إليهم أم أيوب، وقالت مرحبًا بنبيّ الله وبمن معه، فقال لها النبي عليه الصلاة السلام: «**أين أبو أيوب؟**» فسمع أبو أيوب صوت النبي ﷺ - وكان يعمل في نخل قريب له - فأقبلَ يسرع وهو يقول: مرحبًا برسول الله وبمن

---

(١) أخرجه مسلم (٣/ ١٧١/ ١٦٢٣) كتاب الفتن.
(٢) فرسان في عصر النبوة (ص: ٦٤٦-٦٤٧).
(٣) الهاجرة: نصف النهار في شدة القيظ.

معه، ثم أتبع قائلًا يا نبي الله ليس هذا بالوقت الذي كنت تجيء فيه فقال عليه الصلاة والسلام: «**صدقت**» ثم أنطلق أبو أيوب إلى نخيله فقطع منه عذقًا فيه تمر ورُطب وسر[1] فقال عليه الصلاة والسلام: «**ما أردت أن تقطع هذا إلا جنيت لنا من تمره؟**» قال: يا رسول الله أحببت أن تأكل من تمره ورطبه وبسره ولأذبحن لك أيضًا قال: «**إن ذبحت فلا تذبحنَّ ذات لبن**» فأخذ أبو أيوب جديًا فذبحه ثم قال لامرأته أعجني وأخبزي لنا، وأنتِ أعلم بالخبز، ثم أخذ نصف الجدي فطبخه وعمد إلى نصفه الثاني فشواه فلما نضج الطعام ووضع بين يدي النبي ﷺ وصاحبيه أخذ الرسول قطعة من الجدي ووضعها في رغيف وقال: «**يا أبا أيوب، بادر بهذه القطعة إلى فاطمة، فإنها لم تصب مثل هذا منذ أيام**».

قلت ما سمعتم وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

الحمد لله رب العالمين ولا عدوان إلا على الظالمين وأصلي وأسلم على سيد الأولين والآخرين وعلى آله وصحابته أجمعين.

أما بعد:

لَمَّا أكلوا وشبعوا (أي النبي ﷺ وأبو بكر وعمر)، قال النبيع: «**خبز ولحم وتمر وبُسْرٌ ورطب !!!**» ودمعت عيناه ثم قال: «**والذي نفسي بيده إن هذا هو النعيم الذي تسألون عنه يوم القيامة**». ثم نهض الرسول صلوات الله عليه، وقال لأبي أيوب: «**ائتنا غدًا**» وكان عليه الصلاة والسلام لا يصنع له أحد معروفًا إلا أحب أن يجازيه عليه، لكن أبا أيوب لم يسمع ذلك فقال له عمر - رضوان الله عليه - إن النبي ﷺ يأمرك أن تأتيه غدًا يا أبا أيوب، فقال أبو أيوب: سمعًا وطاعة لرسول الله.

فلما كان الغدُ ذهب أبو أيوب إلى النبي عليه الصلاة والسلام، فأعطاه وليدة

(١) العذق: غصن له شعب، الرطب: ما نضج من تمر النخيل، والبسر: ما لم يكتمل نضجه.

-جارية صغيرة- كانت تخدمه، وقال له: «**استوص بها خيرًا - يا أبا أيوب - فإنا لم نر منها إلَّا خيرًا ما دامت عندنا**» عاد أبو أيوب إلى بيته ومعه الوليدة؟ فلما رأتها أم أيوب: قالت: لمن هذه يا أبا أيوب؟! قال: لنا .. منحنا إياها رسول الله ﷺ . فقالت: أعظم به من مانح، وأكرم بها من منحة. فقال: وقد أوصانا بها خيرًا. فقالت: وكيف نصنع بها حتى ننفذ وصية رسول الله ﷺ؟ فقال: والله لا أجد لوصية رسول الله بها خيرًا من أن أعتقها. فقالت: هُديت إلى الصواب، فأنت موفق .. ثم أعتقها[1] .

عباد الله: وظل أصحاب النبي ﷺ يعرفون لأبي أيوب قدره ومنزلته وعظيم مكانته، وفى سيرة ابن عباس: أنه كان أميرًا على البصرة «لعلي» وأن أبا أيوب الأنصاري وفد عليه، فبالغ في إكرامه وقال: لأجزينك على إنزالك النبي ﷺ عندك، فوصله بكل ما في المنزل، فبلغ ذلك أربعين ألفًا. وفي رواية: أن أبا أيوب قدم على ابن عباس البصرة، ففرَّغ له بيته، وقال: لأصنعن بك كما صنعت برسول الله ﷺ .. كم عليك؟ قال: عشرون ألفًا، فأعطاه أربعين ألفًا، وعشرين مملوكًا، ومتاع البيت[2] وظل أبو أيوب يعيش حياته زاهدًا في الدنيا راغبًا فيما عند الله - جل وعلا - لا تشغله الدنيا بحال من الأحوال، عن سالم ، قال: أعرستُ فدعا أبي الناس، فيهم أبو أيوب، وقد ستروا بيتي بجنادي أخضر، فجاء أبو أيوب فطأطأ رأسه، فنظر فإذا البيت مُستَّر، فقال: يا عبد الله ، تسترون الجدر؟ فقال أبي واستحيى: غلبنا النساء يا أبا أيوب، فقال: من خشيت أن تغلبه النساء، فلم أخش أن يغلبنك، لا أدخل لكم بيتًا، ولا آكل لكم طعامًا [3]! بل كان لا يخاف في الله لومة لائم، فكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ولا يبتغي بذلك إلا وجه الله تعالى، عن محمد بن كعب، قال: كان أبو أيوب يخالف مروان، فقال: ما يحملك على هذا؟ قال إني رأيت رسول الله ﷺ يصلي

---

(١) صور من حياة الصحابة (٧٠: ٧٣) بتصرف.

(٢) أخرجه الطبراني رقم (٣٨٧٧) والحاكم (٣/ ٤٦١، ٤٦٢) وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) قال الأرنؤوط: رواه الطبراني (٣٨٥٣) وهو في التاريخ لابن عساكر (٥/ ٢١٨/ ٢) وإسناده قوي.

الصلوات فإن وافقته، وافقناك، وإن خالفته خالفناك[١].

أما حرصه على طلب العلم فقد رحل ت لطلب حديث واحد فعن عطاء بن أبي رباح: «خرج أبو أيوب إلى عقبة بن عامر وهو بمصر يسأله عن حديث سمعه من رسول الله ﷺ فلما قدم أتى منزل مَسْلَمة بن مخلد الأنصاري، وهو أمير مصر، فأخبر به فعجل، فخرج إليه، فعانقه، وقال ما جاء بك يا أبا أيوب؟ فقال: حديث سمعته من رسول الله ﷺ لم يبق أحد غيري وغيرك في ستر المؤمن قال: نعم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من ستر مؤمنًا في الدنيا على خُربة ستره الله يوم القيامة**» فقال له أبو أيوب: صدقت، ثم انصرف أبو أيوب إلى راحلته، فركبها راجعًا إلى المدينة، فما أدركته جائزة مسلمة بن مخلد إلا بعريش مصر[٢]».

عباد الله: وكان لأبي أيوب موقف جليل في حادثة الإفك الذي تولى كبرها رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول فلقد خاض كثير من المسلمين في تلك الحادثة، وهلك بسببها من هلك وإذا بأبي أيوب يقف موقف المؤمن الصادق صاحب القلب التقي النقي الذي لا يظن بالناس إلا خيرًا فكيف بأم المؤمنين الطاهرة المبرأة من فوق سبع سماوات. قال تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور:١٢]

قال الحافظ ابن كثير في هذه الآية:

نزلت في أبي أيوب الأنصاري وامرأته رضي الله عنهما فإن أبا أيوب قالت له امرأته أم أيوب: يا أبا أيوب أما تسمع ما يقول الناس في عائشة رضي الله عنها؟ قال: نعم، وذلك الكذب، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب، قالت: لا والله ما كنت لأفعله، قال: فعائشة والله خيرٌ منك، فذلك قوله تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ

---

(١) قال الهيثمي في المجمع (٢/ ٦٨) رواه الطبراني (١٩٣٣) ورجاله ثقات.

(٢) الحديث حسن بمجموع الطرق: رواه أحمد، والحميدي، والخطيب البغدادي في الرحلة في طلب الحديث (ص١١٨-١٢٠).

خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور:١٢] كما قال أبو أيوب وصاحبته[١].

أما جهاد أبو أيوب في سبيل الله فقد شهد المشاهد كلها فلم يتخلف عن غزوة غزاها المسلمون وكانت آخر غزواته حين جهز معاوية جيشًا بقيادة ابنه يزيد لفتح القسطنطينية، وكان أبو أيوب آنذاك شيخًا طاعنًا في السن يحبو نحو الثمانين من عمره، فلم يمنعه ذلك من لقاء العدو، لكنه لم يمض غير قليل على منازلة العدو حتى مرض أبو أيوب مرضًا أقعده، فأتاه يزيد يعوده، فقال: حاجتك؟ قال: نعم: إذا أنا متُّ فاركب بي ثم تبيغ بي في أرض العدو ما وجدت مساغًا، فإذا لم تجد مساغًا، فاوفني ثم ارجع، فلما مات ركب به ثم تبيغ به الدم: أي تردد فيه، سار به ثم دفنه وكان يقول: قال الله: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة:٤١].لا أجدني إلا خفيفًا أو ثقيلًا.

هذه حاجة أبي أيوب وهو يجود بروحه، ولقد أنجز يزيد وصية أبي أيوب، وفي قلب القسطنطينية وهي اليوم استانبول ثوى جثمان رجل عظيم، جد عظيم!! أراد أن يكون مثواه حيث يزحف جيش الإسلام، وتخفق الأعلام، وتَصْهَل الخيول، هناك حيث صلصلة السيوف.

وعند ابن سعد: عن أبي ظبيان، قال: أغزى أبو أيوب، فمرض، فقال: إذا مت فاحملوني، فإذا صافقتم العدو، فارموني تحت أقدامكم، أما إني سأحدثكم بحديث سمعته من رسول الله ﷺ سمعته يقول: «من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة»[٢].

يا له من شرف عارم إلى الجهاد لا يحدُّهُ حدٌّ ! فرضي الله عن السيد الشيخ المجاهد المدفون تحت أسور القسطنطينية.

رضي الله عمن قضى حياته في أشواق عابد .. يؤمن بالنصر، ويرى بنور بصيرته

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٢٦٦).

(٢) قال الأرنؤوط: إسناده قوي: أخرجه ابن سعد (٣/ ٤٨٤- ٤٨٥).

بقاع القسطنطينية، وقد أخذت مكانها بين واحات الإسلام: ودخلت مجال نوره وضيائه. فرضي الله عن أبي أيوب وعن سائر الصحابة أجمعين.

اللهم أعز الإسلام والمسلمين وأذل الشرك والمشركين، وانصر من نصر الدين، واخذل من خذل الدين، اللهم بدل سيئاتنا حسنات، واغفر للمسلمين أحياء وأمواتًا إنك جواد كريم ، وقوموا إلى صلاتكم.

obeikandl.com

زيد بن أرقم رضي الله عنه

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مُضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠، ٧١].

أما بعد:

فإن أصدقَ الحديثِ كتابُ الله، وخيرَ الهدي هديُ محمدٍ ﷺ ، وشرَّ الأمورِ محدثاتُها، وكلَّ محدثةٍ بدعة، وكلِّ بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الأحبة في الله: حديثنا اليوم بإذن الله عن الصحابي الجليل زيد بن أرقم رضي الله عنه إنه واحد من مشاهير الصحابة تفاعل قلبه وتفاعلت جوارحه مع هذا الدين قلبًا وقالبًا، ففاز بمنقبة لا توازيها الدنيا بأسرها وستأتي. أسلم وهو صغير وقد تجرع مرارة اليتم وتربى في حجر ابن رواحة رضي الله عنه ويا ليتنا نبدأ القصة من أولها لنتعايش مع هذا الصحابي الجليل من خلال قصته المباركة التي تملأ القلب نورًا ويقينًا وثباتًا.

لقد سكن العرب القدماء يثرب، وزرعوا النخل فيها، وبنوا الآطام واتخذوا الضياع، ثم وفد اليهود إليها وسكنوا فيها بجوار أهلها الأصليين من العرب، وذلك قبل وفود الأوس والخزرج إليها مرتحلين من اليمن، ولم يستطع اليهود منع هذه

القبائل العربية من مجاورتهم فاكتفوا ببسط النفوذ الاقتصادي والاجتماعي عليهم، وقَبل المهاجرون ذلك على مضض لضعفهم، وعملوا عندهم أُجراء في زراعة الأَرض، واستمر الحال كذلك إلى أن اشتدت شوكتهم ونازعوا اليهود سلطانهم وسيادتهم. ولما أن رأى اليهود هؤلاء العرب قد زاحموهم في ديارهم، ونازعوهم ملكهم وسيادتهم، وأنهم على مرور الأيام تشتد شوكتهم ويزداد نفوذهم وسلطانهم عندها لجأ اليهود إلى الحرب النفسية وإلى الحيلة والفتنة للتفريق والوقيعة بين الحيين العربيين وجعلوا يدسون الحقد والكراهية بينهم ويستثيرون فيما بينهم أسباب العداوة والبغضاء، ويغذون الأحقاد بكل وسائلهم المشروعة وغير المشروعة حتى تم لهم ما أرادوا فحلت البغضاء محل المودة والعداوة محل الألفة، فقامت بينهما حروب طاحنة وكان لها في حياتهم تاريخ طويل، وكان لهم في ذلك أيام مشهورة، ويُعَدُّ يوم بعاث آخر هذه الأيام الهوجاء وكان قبل الهجرة النبوية بنحو خمس سنين وكان يومًا أليمًا على كلا الحيين وبخاصة الخزرج الذين كادوا يُقْتَلُون حرقًا بديارهم بيد الأوس لولا أن منَّ الله عليهم ووقاهم شر ذلك النزيف القديم، ووقف أحد عقلاء الأوس وأشار بوقف الحرب والانتباه لما يرميه جيرانهم الثعالب أصحاب المكر والمقاصد الخبيثة.

واستفاق الخزرج والأوس من سُبات هذه الغفلة وشعروا بسوء ما جنته حروبهم بأيديهم في الأيام الخالية، وأحسوا بالخسارة الكبيرة التي حلت بهم حيث كثر عدد الأرامل والأيتام، وفقدوا الشباب، وأنفقوا الأموال في غير طائل، فحاولوا إصلاح ذات بينهم وتواصوا بإنهاء الخلافات وطمس معالم الأحقاد والحروب، وفي ظل هذه الأحداث نشأ زيد بن أرقم بن زيد بن قيس الخزرجي، ولم يعش مرحلة طفولته في أحضان والديه، بل نشأ يتيمًا في كنف أحد سادات بني الخزرج «عبد الله بن رواحة» - رضي الله عنه - الذي كان يرعاه ويوجهه[1].

وكان زيد الذي تعايش مع تلك الأحداث المؤلمة يتمنى من أعماق قلبه أن يأتي من

(١) رجال مبشرون بالجنة (ص٢٣٣: ٢٣٥) بتصرف.

ينقذ البشرية كلها من أوحال الشرك والكفران إلى أنوار التوحيد والإيمان. ولم تمض مدة يسيرة حتى جاء طوق النجاة وظهر الإسلام على أرض الجزيرة وأشرقت أنوار التوحيد على البشرية لتضيء لهم الطريق إلى الله بعد قرون طويلة عاش الناس فيها في ظل جاهلية يعجز القلم عن وصفها وخرج عبد الله بن رواحة لأداء الحج مع قومه وعشيرته. وكان اللقاء التاريخي مع الحبيب ﷺ عند العقبة فبايعه ابن رواحة وكان من نقباء الخزرج الذين وقع الاختيار عليهم ليكونوا نقباء على قومهم لتنفيذ بنود هذه البيعة.

وعاد ابن رواحة وقد امتلأ قلبه بالفرحة والسعادة، عاد وقد حمل أمانة الدين والدعوة إلى الله على كتفيه وسخر ماله ونفسه لخدمة دين الله وللذود عن حياضه، وسرعان ما انتشر الإسلام في ربوع المدينة وأصبح المكان مهيأ لاستقبال خير البشر ﷺ وهنا أذن الله لحبيبه ﷺ بالهجرة إلى يثرب «المدينة» لتكتمل سعادة أهلها الذين كانوا في شوق شديد لرؤياه ﷺ وملازمته.

وقام أهل المدينة ومعهم زيد بن أرقم لاستقبال الحبيب ﷺ في موكب يعجز القلم عن وصف سعادة أهله. وما إن دخل الحبيب ﷺ المدينة حتى كاد زيد أن يطير فوق السحاب ويسابق الريح من شدة فرحته بقدوم الحبيب ﷺ. وظل ملازمًا للنبي ﷺ ملازمة العين لأختها؛ لينهل من هديه وعلمه وأخلاقه العذبة، وامتلأ قلبه حُبًّا لرسول الله ﷺ حتى إنه كان يتمني أن يفديه بنفسه وبكل ما يملك.

ولما شرع الحبيب ﷺ في بناء مسجده كان زيد - على الرغم من صغر سنه - من المسارعين إلى المشاركة في بناء المسجد.

أما حرصه على الجهاد فقد جاءت غزوة بدر وكان زيد يتمنى أن يكرمه الله بنعمة الشهادة في سبيله فعرض نفسه على الحبيب ﷺ ولكن النبي ﷺ رده مع ثلة من أترابه لصغر السن فعاد زيد ودموعه تقطر على وجنتيه حزنًا على حرمانه من الجهاد في سبيل الله.

ولما كانت غزوة أُحد أراد زيد أن يشارك فيها على الرغم من صغر سنه ليفوز بالشهادة في سبيل الله، ولتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى. فعن عروة قال: ردَّ رسول الله ﷺ نفرًا يوم أحد استصغرهم منهم: أسامة، وابن عمر، والبراء، وزيد بن أرقم، وزيد بن ثابت، وجعلهم حرسًا للذرية[1].

عباد الله: لقد كان الإسلام دعوة تغالب النظام السائد كانت مخاصمته تتخذ طريق الهجرة والتهجم دون مبالاة، فلما استقر له الأمر وتوافرت لأبنائه أسباب القوة، سلكت عداوته المسارب التي تسلكها الغرائز المكبوتة، فأمسى المكيد له يقوم على المكر والدس إلى جانب الوسائل الأخرى التي يعالن بها الأقوياء. وائتمار الضعفاء في جنح الظلام لا يقل خطورة عن نكاية الأقوياء في ميادين الصدام، بل إن المرء قد يألم لإشاعة ملفقة أكثر مما يألم لطعنة مواجهة.

وفى الحروب الفاجرة تستخدم جميع الوسائل التي تصيب العدو، وإن كان بعضها يستحي من استخدامه الرجل الشريف، وقد لجأ المنافقون في المدينة إلى مناوأة النبي ﷺ ودعوته بأسلوب تظهر فيه خسة النفس الإنسانية عندما يستبد بها الحقد، ويغلب عليها الضعف، أسلوب اللمز والتعريض حينًا، والإفك حينًا آخر، وكلما توطدت سلطة المسلمين ورسخت مكانتهم ازداد خصومهم المنافقون ضغنًا عليهم وتربصا بهم، وقد حاولوا تأييد اليهود عندما تأذنهم الرسول ﷺ بالجلاء فلما لم يقف مد الإسلام شيء ولم تهده هزيمة وأخذت القبائل العادية تخشى واحدة تلو أخرى، التحق أولئك المنافقون بصفوف المسلمين ولم تنكشف نياتهم السوء إلا على فلتات الألسنة ومزالق الطباع فكانت سيرتهم تلك مثار فتن شداد تأذى منها رسول الله ﷺ والمؤمنون شيئًا غير قليل.

ظهر ذلك جليًّا في غزوة « بني المصطلق» .

فقد بلغ رسول الله ﷺ أن بني المصطلق يجمعون له، وقائدهم الحارث بن أبي

---

(١) ابن هشام (٢/ ٦٦).

ضرار أبو جُويرية بنت الحارث ﷺ ، زوج رسول الله ﷺ فلما سمع رسول الله ﷺ، بهم خرج إليهم، حتى لقيهم على ماء لهم يقال له: المريسيع، من ناحية قُديد إلى الساحل، فتزاحف الناس واقتتلوا فهزم الله بني المصطلق، وقُتِلَ من قُتِلَ منهم، ونفَّلَ رسول الله ﷺ أبناءهم ونساءهم وأموالهم فأفاءهم عليه[1]. على أن هذا النصر شابه من أعمال المنافقين ما عكر صفوه وأنسى المسلمين حلاوته.

قلت ما سمعتم وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الحمد لله ولي الصالحين ولا عدوانَ إلا على الظالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وإمام المتقين وحجة الله على الناس أجمعين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

بينا رسول الله ﷺ على ذلك الماء، وردت واردة الناس، ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار يقال له: جهجاه بن مسعود، يقود فرسه، فازدحم جهجاه وسنان بن وبر الجهني، حليف بني عوف بن الخزرج على الماء، فاقتتلا، فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار وصرخ جهجاه يا معشر المهاجرين فغضب عبد الله بن أبيّ بن سلول، وعنده رهط من قومه فيهم: زيد بن أرقم، غلام حدث، فقال: أوقد فعلوها، قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا. والله ما أعدنا وجلابيب قريش إلَّا كما قال الأول: سَمِّنْ كلبك يأكلك، وأما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجنّ الأعز منا الأذل.

ثم أقبل على من حضره من قومه، فقال لهم، هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم

(١) ذكره الهيثمي في المجمع(٦/ ١٤٢) وقال: رواه الطبري، ورجاله ثقات.

بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوَّلوا إلى غير داركم .. فسمع ذلك زيد بن أرقم، فمشى به إلى رسول الله ﷺ وذلك عند فراغ رسول الله ﷺ من عدوه، فأخبره الخبر، وعنده عمر بن الخطاب، فقال: مُرْ به عباد بن بشر فليقتله فقال له رسول الله ﷺ: «**فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه**» لا ولكن أذن بالرحيل وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها، فارتحل الناس[1].

وقد مشى عبد الله بن أُبيّ بن سلول إلى رسول الله ﷺ حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلَّغه ما سمع منه، فحلف بالله ما قلت ما قال، ولا تكلمت به - وكان في قومه شريفًا عظيمًا - فقال من حضر رسول الله ﷺ من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله، عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه، ولم يحفظ ما قال الرجل، حدبًا على ابن أبيّ بن سلول، ودفعًا عنه.

إن هذا الرجل حلف كاذبًا بعد أن أنكر مقالته الثابتة ولو أن الجبان ذهب يطلب النجاة من عقباها لكان ذلك أجدى عليه، لكنه لم يزدد - على السماح الذي قوبل به - إلَّا خسة وخصامًا والبون بعيد بين أصناف الرجال الذين عادوا الإسلام ورسوله، لقد كان أبو جهل خصمًا لدودًا لكل من دخل في هذا الدين، وكان طاغية عنيدا لا تنتهي لجاجته، إلَّا أنه كان كالضبع المفترس لا يحسن الالتواء والوقيعة، حمل السيف في وضح النهار، وما زال يقاتل به حتى صرع. أما عبد الله بن أُبيّ، فقد اختفى كالعقرب الخائفة، ثم شرع يلسع الغافلين، قبع هذا المنافق في جنح الظلام وبدأ ينفث الإشاعات المريبة.

وتدلى في غوايته - إلى حضيض بعيد، فلم يبال أن يتهجم على الأعراض المصونة، وأن ينسج حولها مفتريات يندى لها جبين الحرائر العفيفات[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ح ٣٥١٨)، ومسلم (٤/ ٦٣/ ١٩٩٨) بنحوه.
(٢) فقه السيرة للغزالي (ص٣٢٩).

قال ابن إسحاق: فلما استقل رسول الله ﷺ وسار، لقيه أُسيد بن حضير، فحياه بتحية النبوة وسلّم عليه، ثم قال: يا نبي الله، والله لقد رحت في ساعة منكرة ما كنت تروح في مثلها فقال له رسول الله ﷺ: «أوَمَا بلغك ما قال صاحبكم؟» قال وأي صاحب يا رسول الله؟ قال: عبد الله بن أبي، قال: وما قال؟ قال: زعم إنه إن رجع إلى المدينة ليُخرجن الأعز منها الأذل، قال: فأنت يا رسول الله والله تخرجه منها إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز، ثم قال: يا رسول الله، أرفق به فوالله لقد جاءنا الله بك، وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه،فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكًا»[١].

إن ابن أبيّ غص بالإسلام لأنه رآه خطرًا على زعامته، وكذلك فعل أبو جهل من قبل، ولئن كان هؤلاء قد ازوروا عن الحق بعد ما تبينوه، إن هناك ألوفًا غيرهم لا يدركون قيلًا ولا يهتدون سبيلًا، كرهوا الإسلام وحاربوه. ووسط هذه الجهالات البسيطة أو المركبة، والعداوات المقصودة أو المضللة، وسط نماذج لا حصر لها من الضلال والغفلة أخذ الإسلام زويدًا زويدًا ينشر أشعته فأخرج أمة من الظلام إلى النور، بل جعلها مصباحًا وهاجًا يضيء ويهدي.

والدروس التي أحدثتَ هذا التحول الخطير والتي رفعت شعوبًا وقبائل من السفوح إلى القمم ليست دواء موقوتًا أو مخصوصًا، بل هي علاج أصيل لطبيعة الإنسان إذا الثبات وستظل ما بقي الإنسان وبقيت الحياة تكرم الإنسان وتجدد الحياة[٢].

قال «زيد» فأصابني غَمٌّ لم يصبني مثله قط، فجلست في بيتي وقال عمي: ما أردت إلا أن كذبك النبي ﷺ ومقتك؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾[المنافقون:١] وأرسل إليَّ النبي ﷺ فقرأها وقال: إن الله صدَّقك»[٣].

---

(١) السيرة لابن هشام (٣/ ٢٦٥).
(٢) فقه السيرة للغزالي (ص٣٢-٣٣).
(٣) أخرجه البخاري (٤٩٠٤) كتاب التفسير.

وهكذا أنزل الله قرآنا ليصدق زيد بن أرقم وليدافع عنه كما دافع هو عن رسول الله ﷺ وتأتي أحداث غزوة مؤتة، وكان سببها أن رسول الله ﷺ بعث الحارث بن عمير الأزدي أحد بني لهب بكتابه إلى الشام إلى ملك الروم أو بصرى فعرض له شرحبيل ابن عمرو الغساني فأوثقه رباطًا ثم قدمه فضرب عنقه، ولم يقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره، فاشتد ذلك عليه حين بلغه الخبر، فبعث البعوث واستعمل عليهم زيد بن حارثة وقال: «**إن قتل زيد فجعفر وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة**»[١].

فخرج زيد بن أرقم مع عبد الله بن رواحة الذي طالما أحسن إليه ورباه في حجره.

قال زيد: كنت يتيمًا في حجر ابن رواحة فخرج بي معه إلى مؤتة مردفي على حقيبة رحله[٢] ثم خرج القوم وخرج رسول الله ﷺ يشيعهم حتى إذا ودعهم وانصرف عنهم، ثم مضوا حتى نزلوا معان من أرض الشام فبلغهم أن هرقل في باب من أرض البلقاء، في مائة ألف من الروم، وقد اجتمعت إليهم المستعربة من لخم، وجذام وبلقين وبهرام وبلى في مائة ألف ثم التقى الناس واقتتلوا فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ حتى شاط في رماح القوم، ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى إذا ألجمه القتال اقتحم عن فرس له شقراء، فعقرها فقاتل القوم حتى قتل، وكان جعفر أول رجل من المسلمين عقر في الإسلام[٣]. فلما قتل جعفر أخذ عبد الله ابن رواحة الراية ثم تقدم بها وهو على فرسه، وقال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه :

يا نفس إلَّا تقتلي تموتي ∴ هذا حمام الموت قد صليت

وما تمنيت فقد لقيت ∴ إن تفعلي فعلهما هُديت

ثم نزل فلما أتاه ابن عم له بعظم من لحم فقال: اشدد بهذا صلبك فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما قد لقيت، فأخذه من يده فانتهش منه نهشة ثم سمع الحطمة من

(١) زاد المعاد (٣/ ٣٨١)، والحديث رواه البخاري (٧/ ٥٨٣).

(٢) الإصابة (١/ ٥٦٠).

(٣) قال الهيثمي: رواه الطبراني ورجاله ثقات إلى عروة، مجمع الزوائد (٦/ ١٠٧-١٠٩).

ناحية الناس فقال: وأنت في الدنيا، ثم ألقاه من يده ثم أخذ سيفه فقاتل حتى قتل[١] . وعاد زيد من مؤتة وقد مات حبيبه الذي كفله ورباه وأحسن إليه «عبد الله بن رواحة» فحزن عليه حزنًا شديدًا وظل زيد ملازمًا للنبي ﷺ يقبس من هديه وأخلاقه ويشعر معه بالأمان والحب والرحمة التي كان في أشد الحاجة إليها. إلى أن جاء اليوم الذي توفي فيه الحبيب ﷺ فأظلمت الدنيا كلها في عين زيد وكاد قلبه أن يتمزق من الحزن ولكن مضى في طريقه إلى الله تعالى عابدًا زاهدًا مجاهدًا في سبيل الله فلم يترك فرصة للجهاد في سبيل الله إلا ويبيع نفسه فيها لله عسي الله أن يرزقه الشهادة في سبيله.

ولقد عرف الصحابة ﷺ قدره ومكانته، فحملوا له الحب والتقدير إلى أن جاءت اللحظة المناسبة التي نام فيها زيد على فراش الموت، وفاضت روحه الطاهرة لبارئها - جل وعلا - ليلحق بالحبيب ﷺ وأصحابه ﷺ في جنات النعيم التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. فرضي الله عن زيد وعن الصحابة أجمعين ، اللهم انصر الإسلام والمسلمين وأذل الشرك والمشركين، اللهم من ولي أمر المسلمين فيسر أمورهم فيسر أمره، وأصلح شأنه، ومن شق عليهم فاشقق عليه، ولا تجعل له تمكينًا على عبادك الصالحين اللهم عليك بالصليبيين وأعوانهم ، اللهم شتت شملهم وفرق جمعهم ، واجعل الدائرة عليهم يا سميع الدعاء، اللهم اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا، اللهم أحينا مسلمين وأمتنا مسلمين غير خزايا ولا مفتونين ، وقوموا إلى صلاتكم.

(١) رواه الهيثمي في المجمع (٦/ ١٥٩ - ١٦٠) رواه الطبراني ورجاله ثقات.

obeikandl.com

عبد الله بن أمّ مكتوم رضي الله عنه

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضل له ، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء:١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠، ٧١].

أما بعد:

فإن أصدقَ الحديثِ كتابُ الله، وخيرَ الهدي هديُ محمدٍ ﷺ، وشرَّ الأمورِ محدثاتُها، وكلَّ محدثةٍ بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الأحبة في الله: حديثنا اليوم بإذن الله عن الصحابي الجليل عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه.

عباد الله: لقد أخذت الدعاية للإسلام تنتشر في مكة وتعمل عملها في أصحاب الأفئدة الكبيرة، فسرعان ما يتركون جاهليتهم الأولى ويسارعون إلى اعتناق الدين الجديد، وكانت آيات القرآن تنزل على القلوب التي استودعت بذور الإيمان كما ينزل الوابل على التربة الخصبة.

﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ

زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج:٥].

كان أصحاب العقائد يتجمعون - في تؤدة - حول عقائدهم، ويلتفون في حب وإعجاب - حول إمامهم، ويشرحون، في حذر - أصول فكرتهم والإيمان قوة ساحرة، إذا استمكنت من شعاب القلب وتغلغلت في أعماقه تكاد تجعل المستحيل ممكنًا[1] وها نحن على موعد مع هذا المثل الحي الذي يثبت للكون كله أنه لا مستحيل في ظل العقيدة الراسخة والإيمان العميق.

فها هو عبد الله بن أم مكتوم ذلكم الصحابي الجليل الذي ابتلاه الله - عز وجل - في بصره وأنعم عليه بنعمة البصيرة الثاقبة، فكان علمًا من أعلام الصحابة، فقل أن تجد مسلمًا في هذا الكون لا يعرفه.

إننا ما إن نفتح كتاب الله ونبدأ في قراءة سورة عبس إلا ونذكر في التو واللحظة قصة « عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه مع رسول الله ﷺ » .

إنه الصحابي الذي عُوتب فيه الحبيب ﷺ من فوق سبع سموات، وأنزل الله في شأنه قرآنا يُتلى إلى يوم القيامة. فتعالوا بنا لفتح تلك الصفحة الناصعة ليعلم أهل البلاء أنه لا مستحيل في ظلال العقيدة وأن الإيمان يصنع المعجزات بإذن الله.

كان ابن أُمِّ مكتوم رجلًا بسيطًا من رجالات مكة لم يكن له شأن قبل الإسلام، فإنه لم يكن سيدًا في قومه، ولكن بعد أن أسلم واستعلى بإيمانه أصبح سيدًا في الكون كله.

و ابن أُمِّ مكتوم تربطه بالرسول صلة رحم، فلقد كان ابن خال أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ولقد اختلفوا في اسمه .. فأهل المدينة يقولون: عبد الله بن قيس بن زائدة وأهل العراق يسمونه عمرًا، أما أبوه فقيس بن زائدة، وأما أمه فعاتكة بنت عبد الله، ولقد دعيت بأم مكتوم لأنها ولدته أعمى مكتومًا وكان عبد الله بن أُمِّ مكتوم يحمل عزيمة قوية تفتت الجبال وتنفد في الحديد، ولكنه كان بحاجة إلى

(١) فقه السيرة للشيخ الغزالي (ص:١١١).

رسالة وغاية شريفة يبذل فيها جهده وطاقته.

وإذا بالنور الإلهي يسطع على أهل مكة ليضيء أرجاء الكون .. وإذا بهذا القلب الطاهر يتفاعل مع هذا النور ويستجيب ابن أمِّ مكتوم لدعوة الحق ويسلم ليكون من السابقين إلى هذا الدين العظيم. وما علم «ابن مكتوم» إنه بذلك سيدخل التاريخ من أشرف وأعظمها أبوابه ، وأن الكون كله سيردد قصته لتكون مثالاً يُحتذى ونبراسًا يُقتدى.

ومدَّ ابن أُمِّ مكتوم يده إلى رسول الله ﷺ معلنا إسلامه، ومقررًا انضمامه إلى كتيبة الإيمان معاهدًا لله ورسوله على بذل روحه في سبيل الله، ومنذ ذلك اليوم حرص على أن يتفقه في دينه ويعرف عنه كل شيء.

كان يسأل الرسول ﷺ وحوله حلقة من الرجال الأُول يسمعون ويفهمون، ويسأله وهو في طريقه إلى الكعبة، ويسأله وهو يعترض طريق الرجال ليدعوهم إلى الإسلام.

قال ابن كثير - رحمه الله -: ذكر غير واحد من المفسرين أن رسول الله ﷺ كان يومًا يخاطب بعض عظماء قريش وقد طمع في إسلامه، فبينما هو يخاطبه ويناجيه، إذ أقبل ابن أُمِّ مكتوم - وكان ممن أسلم قديما - فجعل يسأل رسول الله ﷺ عن شيء ويلح عليه، وود النبي ﷺ أن لو كف ساعته تلك ليتمكن من مخاطبة ذلك الرجل طمعًا ورغبة في هدايته، وعبس في وجه ابن أُمِّ مكتوم، وأعرض عنه وأقبل على الآخر فأنزل الله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ۝١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ۝١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ۝١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ﴾ [عبس ١: ١٦].

تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤/ ٤٧٠).

ست عشرة آية نزل بها جبريل الأمين - عليه السلام - على قلب النبي الكريم ﷺ في

شأن عبد الله بن أُمِّ مكتوم ، لا تزال تتلى منذ نزلت إلى اليوم، وستظل تتلى حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

ومنذ ذلك اليوم ما فتيء الرسول صلوات الله عليه يُكْرِمُ منزل عبد الله ابن أُمِّ مكتوم إذا نزل، ويدني مجلسه إذا أقبل، ويسأله عن شأنه ويقضي حاجته.

ولا غرو، أليس هو الذي عوتب فيه من فوق سبع سماوات أشدَّ عتاب وأعنفه[1]؟! [لا غرو: لا عجب] ولما اشتد إيذاء كفار قريش لأصحاب النبي ﷺ أذن لهم الحبيب ﷺ بالهجرة إلى يثرب المدينة فكان ابن أُمِّ مكتوم من السابقين إلى الهجرة والفرار بدينهم خوفًا من الفتنة التي تكاد تعصف بالقلوب.

قال البراء ﷺ: أول من قدم علينا مصعب بن عمير و ابن أُمِّ مكتوم فجعلا يقرآن الناس القرآن[2] وهكذا عاش ابن أُمِّ مكتوم في رحاب إخوانه الأنصار الذين وضعوا المهاجرين في أعينهم، وأغلقوا عليهم الجفون خوفًا عليهم حتى من نسيم الهواء.

وظل ابن أُمِّ مكتوم يؤدي تلك الرسالة العظيمة في تعليم الناس القرآن وشرائع الدين ليهيِّئ القلوب لاستقبال الحبيب ﷺ.

واشتاق ابن أُمِّ مكتوم إلى حبيبه ﷺ إلى أن أذن الله للنبي ﷺ بالهجرة إلى يثرب المدينة فسعد « ابن أُمِّ مكتوم» سعادة ملأت قلبه فرحًا وسرورًا. فلما دخل الحبيب ﷺ يثرب كان « ابن أُمِّ مكتوم» يلازمه ملازمة الرجل لظله ليقبس من هديه وعلمه وأخلاقه فلم يتخلف عن الصلاة خلف النبي ﷺ ولم يغب عن حلق العلم.

عباد الله: ولما قدم الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المدينة اتخذ عبد الله بن أُمِّ مكتوم ، وبلال ابن رباح مؤذنين للمسلمين يصدعان بكلمة التوحيد كل يوم خمس مرات، ويدعوان الناس إلى الله ويحضانهم على الفلاح.

---

(١) صور من حياة الصحابة (ص ١٥٣).

(٢) قال الأرنؤوط: أخرجه ابن سعد (٤/ ١/ ١٥١)، والحاكم (٣/ ٦٣٤)، ورجاله ثقات.

ولقد كان بلال يؤذن في رمضان فلا يمتنع الناس عن الطعام والشراب لأن أذانه فقط لإيقاظ النائم وتنبيه الغافل، فإذا أذَّن ابن أُمِّ مكتوم كان هذا إيذانًا بالامتناع عن الطعام والشراب وإمساك الصائمين. فعن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن بلالاً يؤذن بليل، فكلوا واشربوا حتى ينادي ابن أُمِّ مكتوم» وكان أعمى لا ينادى حتى يقال له: أصبحت أصبحت[1]

قلت ما سمعتم وأستغفر الله العلي العظيم لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم .

الحمد لله ولي الصالحين ولا عدوان إلا على الظالمين والعاقبة للمتقين والذلة والصغار للعاصين من المشركين والكافرين والمنافقين أعداء الدين. وأصلي وأسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحابته أجمعين.

أما بعد:

عباد الله: و ابن أُمِّ مكتوم هذا من أولئك الرجال الذين أشربت قلوبهم حب النبي ﷺ فهو أحب إليه من الأهل والعشيرة وأحب إليه من الزوجة والولد، بل أحب إليه من نفسه التي بين جنبيه، وكل واحد من الصحابة الأبرار - و ابن أُمِّ مكتوم منهم - قد يحتمل الإساءة تقدم إلى أهله وذويه ويكظم غيظه. ويعفو ويصفح، ولكنه لا يقبل بأي حال من الأحوال أن يمس شخص الرسول ﷺ بأذى ولذلك لما نزل ابن أُمِّ مكتوم رضي الله عنه على يهودية بالمدينة كانت ترفقه وتحسن إليه وتساعده في طعامه وشرابه، لكنها تؤذيه في النبي ﷺ فتناولها، فضربها، فقتلها، فَرُفِعَ ذلك إلى النبي ﷺ فقال هو : أما والله إن كانت لترفقني ولكن آذتني في الله ورسوله. فقال النبي ﷺ « **أبعدها الله قد أبطلت دَمَها**»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٧، ٢٦٠، ١٨١٩) ومسلم (١٠٩٢).

(٢) قال الأرنؤوط: أخرجه أبو داود (٤٣٦٢) الحدود، ورجاله ثقات.

ولقد أحب النبي ﷺ ابن أُمِّ مكتوم حتى إنه كان يستخلفه على المدينة عند خروجه إلى غزواته ليصلي بالناس.

وكان ابن أُمِّ مكتوم قدوة في العبادة والصيام والقيام وقراءة القرآن.

ولما أنزل الله على نبيه ﷺ آيات من القرآن تحض المسلمين على الجهاد في سبيل الله تعالى وترفع شأن المجاهدين على القاعدين .. وإذا بعبد الله بن أم مكتوم يحزن حزنًا شديدًا ويرفع يديه إلى السماء ويقول: أي رب أنزل عُذري فاستجاب الله دعاءه وأنزلت: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ [النساء:٩٥].

فعن زيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ أملى عليه: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ [النساء:٩٥].

فجاءه ابن أُمِّ مكتوم وهو يَملُّها عليّ قال: يا رسول الله، والله لو أستطيع الجهاد لجاهدت - وكان أعمى - فأنزل الله على رسوله ﷺ وفخذه على فخذي فثقلت عليّ حتى خفت أن ترضي فخذي ثم سُري عنه فأنزل الله ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾[1].

وعن البراء قال: لما نزلت ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: النبي ﷺ: «ادعوا فلانًا» فجاءه ومعه الدواة واللوح أو الكتف، فقال اكتب ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ وخلف النبي ﷺ ابن أُمِّ مكتوم فقال: يا رسول الله أنا ضرير فنزلت مكانها ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء:٩٥].

أما جهاد عبد الله بن أم مكتوم في سبيل الله فها هو صاحب الهمة العالية الذي أنزل الله عذره من فوق سبع سماوات يأبى إلَّا أن يجاهد في سبيل الله .. ولم يعجز أن يجد له دورًا يتناسب مع قدراته لينصر دين الله -جل وعلا -، فكان يغزو ويقول: ادفعوا إليَّ اللواء فإني أعمى لا أستطيع أن أفر وأقيموني بين الصفين»[2] وفي السنة

(١) أخرجه البخاري (٤٥٩٤) كتاب: التفسير.
(٢) أخرجه ابن سعد (٤/ ١/ ١٥٤).

الرابعة عشرة للهجرة عقد عمر بن الخطاب العزم على أن يخوض مع «الفرس» معركة فاصلة تزيل - دولتهم: تقلب دولتهم - وتزيل ملكهم وتفتح الطريق أمام جيوش المسلمين فكتب إلى عماله يقول: لا تدعوا أحدًا له سلاح أو فرس، أو نجدة أو رأي، إلا انتخبتموه ثم وجهتموه إليَّ، والعجل العجل - السرعة - وطفقت جموع المسلمين تُلبي نداء الفاروق وتنهال على المدينة من كل حدب وصوب، وكان في جملة هؤلاء المجاهد المكفوف البصر عبد الله بن أُمِّ مكتوم[1] فأمَّر الفاروق على الجيش الكبير سعد بن أبي وقاص وأوصاه وودعه. ولما بلغ الجيش القادسية برز عبد الله بن أُمِّ مكتوم لابسًا درعه مستكملًا عدته وندب نفسه لحمل راية المسلمين والحفاظ عليها أو الموت دونها.

والتقى الجمعان في أيام ثلاثة قاسية عابسة .. واحترب الفريقان حربًا لم يشهد لها تاريخ الفتوح مثيلًا حتى انجلى اليوم الثالث عن نصر مؤزر للمسلمين فدالت دولة من أعظم الدول .. وزال عرش من أعرق عروش الدنيا .. ورفعت راية التوحيد في أرض الوثنية وكان ثمن هذا النصر المبين مئات الشهداء .. وكان من بين هؤلاء الشهداء عبد الله بن أم مكتوم، فقد وجد صريعاً مُضرَّجًا بدمائه وهو يعانق راية المسلمين[2].

وعن أنس أن عبد الله بن زائدة - وهو ابن أُمِّ مكتوم - كان يقاتل يوم القادسية وعليه درع حصين سابغة قال الواقدي: شهد القادسية معه الراية ثم رجع إلى المدينة فمات بها.

وقال الذهبي: قلت: ويقال: استشهد يوم القادسية[3]

لله درك يا مؤذن رسول الله ﷺ حين تشهد الوغى وطعن الرماح ووقع الأسنة، وتمسك بالراية وأنت أعمى من أي طينة طاهرة عطرة كنتم، وبأي أرحام حُملْتُمْ،

(١) من كل حدب وصوب: من كل ناحية.
(٢) صور من حياة الصحابة (ص١٥٦: ١٥٧) بتصرف.
(٣) السير للإمام الذهبي (١/ ٣٦٥).

ومن أي أصلاب خرجتم؟! لكأنكم أتيتم إلينا من عوالم علوية غير عالمنا هذا !!

فالقادسية ما يزال حديثها ∴ عبر تضيء بأروع الأمثال

تحكي مفاخرنا وتذكر مجدنا ∴ فتجيبها حطين بالمنوال

صفحات مجد في الخلود سطورها ∴ تاق الزمان لها بغير جدال[1]

وبعد فلقد كان ابن أُمِّ مكتوم أعمي البصر، ولكنه كان نافذ البصيرة أنزل الله فيه قرآنًا، فكان هذا إيذانًا من الله - تعالى - بقيام دولة الصالحين المؤمنين، دولة الموحدين القانتين، العاملين بشريعة الله في الأرض، كان هذا إيذانًا من الله بتثبيت القيم الإيمانية والتقوى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحُجُرات:١٣]. ومن ذلك اليوم أخذ الرسول ﷺ يستقبل المستضعفين والذين دوى صوتهم في جنبات الأرض، يحملون للبشرية كلها الأمن بعد الخوف، والنور بعد الظلام، والهدى بعد الضلال فاستقبلتهم الدنيا أحسن استقبال وكانوا على ظهرها قادة ومعلمين.

كانوا رعاة جمال قبل نهضتهم ∴ وبعدها ملأوا الآفاق تمدينًا

لو كبرت في ربوع الصين مئذنة ∴ سمعت في الغرب تهليل المصلينا[2]

وهكذا رحل هذا الصحابي الجليل الذي وإن كان قد حرم في الدنيا من نعمة البصر إلا أنَّ الله قد أنعم عليه بنعمة البصيرة، وقبل ذلك فقد أنعم الله عليه بنعمة الإسلام، وبصحبة خير الأنام ﷺ وسيجبر الله كسره مع أول قدم يضعها في جنة الرحمن - جل وعلا - التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

فهناك يجمع الله بينه وبين حبيبه ﷺ ويعوضه عن فقد البصر في الدنيا بأعظم

(١) نقلًا من صلاح الأمة، د/ سيد حسين (٣/ ٣٥٣).
(٢) رجال أنزل الله فيهم قرآنًا (١/ ٣٧- ٣٨).

وأجل نعمة في الجنة حين يكشف الحجاب وينظر المؤمنون إلى وجه الكريم التواب - سبحانه وتعالى- فرضي الله عن ابن أُمِّ مكتوم وعن سائر الصحابة أجمعين.

اللهم ألحقنا بالصالحين ، واجعلنا من ورثة جنة النعيم، اللهم انصر من نصر الدين واخذل من خذل الدين، اللهم اهد ضال المسلمين واشف مرضاه وعاف مبتلاهم، اللهم من ولي أمر المسلمين ويسر لهم فيسر أمره وأصلح شأنه ومن ولي أمر المسلمين وشق عليهم فاشقق عليه ولا تجعل له تمكينًا في الأرض «ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين». وقوموا إلى صلاتكم.

obeikandl.com